حول ما كتبه اللبنانيون في ديار الاغتراب (تابع)

بقلم الدكتور جميل جبر

يعقوب صروف (١٨٥٢ – ١٩٢٧)

رغم العمل الصحفي الشاق انصرف يعقوب صروف الى الترجمة والتأليف فعرّب بعض روائع الادب الغربي ووضع عدة روايات منها « فتاة مصر » و « فتاة الفيوم » و « امير لبنان » كان ينشرها فصولا في « المقتطف » متخذاً من القصة التاريخية ذريعة لدرس احوال عصره . وادخل الاسلوب العلمي الواضح الموجز في الكتابة . وفي هذا يقول انستاس الكرملي « كان الكاتب عندنا اذا كتب في موضوع صدّر كلامه بمقدمة طويلة عريضة وختمه بمؤخرة اطول من ذنب الطاووس . اما صروفنا فكان يهجم على الموضوع ولا يتركه الا بعد ان يوفيه حقه من البحث » . كان صروف يتوخى السلاسة على اقتصاد في التعبير وبعد عن التكلف كما يشهد هذا المقطع :

« و « الزهرة » فلكها داخل فلك الارض كعطارد ، فاذا كانت الى الجهة الشرقية من الشمس فهي نجمة المساء وتغرب بعد الشمس . واذا كانت في الجهة الغربية من الشمس فهي نجمة الصباح وتطلع قبل الشمس واذا كانت في الاقتران الاسفل فقد ترى شامة سوداء على وجه الشمس او لا ترى مطلقاً . ويظهر من بعض الارصاد ان لها جوّاً يحيط بها تلويحا بالغيوم حتى تتعذر رؤية سطحها من ورائه . وقد ادعى البعض انهم رأوا لها قمراً يدور حولها ولكن الارصاد الحديثة نفت ذلك او لم تثبته » .

وفي الحقل العلمي برز الطبيب شبلي الشميل الذي وضع اطروحة بالفرنسية عنوانها « تحولات الحيوان والبشر تحت تأثير المناخ والغذاء والثقافة » واسس مجلة « الشفاء » سنة ١٨٨٦ م وقد اشتهر في نشره افكار دروين في النشوء والارتقاء واهم ما كتبه « فلسفة التطور » وهو كتاب اكد فيه وحدة القوة والمادة .

قابل صروف بين طريقته العلمية وطريقة الشميل فقال :

« اساس الفرق بيننا في الامور العلمية والاجتماعية انما نحن نميل الى

الخلق وزى ان يذكر كل امر بما يستحقه من الاحتمال او الترجيح او التحقيق اثباتاً كان او نفياً مشفوعين بما اثبته في العلوم الرياضية التي تعلمناها وعلمناه . اما هو فلم يدرس العلوم الرياضية وكان حاد الذهن سريع التصور فيبادر الى مجاهرة بما يعتقده صواباً ولو خالف المألوف ولم تقم أدلة ساطعة على تأييده » . لكنه يستدرك فيقول : « كان نابغة في التعليل نابغاً في اكتشاف الحقائق ومن ثم كان من مشاهير الاطباء في التشخيص كأنما كان يوحى اليه » .

ولم يكتف شبلي الشميل بحقله العلمي بل كتب في السياسة وحرية الفكرية وطالب باطلاق حرية التعبير لان القلم على حد قوله ما هو الا عضو نفسي متمم لأعضاء الانسان الطبيعية . اما القضايا الاجتماعية فكان ثورياً في معالجتها . ومن اقواله : « ان حكومات الشرق هي التي ساعدت على فساد الاخلاق . الفرق بين حكومات المغرب وحكومات المشرق هو ان تلك تحكمها شرائعها وهذه تحكمها ملوكها وان تعدلت الاحكام في بعض ممالك الشرق اليوم فما تعديلها الا صورة لا معنى . فان ملوك الشرق ما زالوا فوق شرائعهم » .

اديب اسحاق (١٨٥٦ – ١٨٨٥)

نزح يافعاً الى وادي النيل فاتصل بجمال الدين الافغاني وتأثر بآرائه الاصلاحية . تولى تحرير صحيفة « التقدم » وهو لما يجاوز السابعة عشرة فتميز بانشائه الرقي على الناقة وانشأ فيما بعد مجلة اسبوعية اسمها « مصر » في القاهرة كانت منبراً للافغاني ؛ ثم نقلها الى الاسكندرية . وأنشأ مع سليم النقاش جريدة يومية اسمها « التجارة » كانت تنتقد الحكومة بدون تحفظ فعطلتها السلطة وذهب اديب اسحاق قاصداً الى باريس حيث اسس صحيفة « القاهرة » وهناك تشبع من افكار الثورة الفرنسية . ولما رفي عنه في مصر عاد اليها واستأنف العمل في صحفه .

يوم اصدر اديب اسحاق صحيفته في باريس كتب : « هذه صحيفة « مصر » فواها الاستبداد فانت شهيدة ثم احيتها الحرية فعاشت سعيدة . حاول احدهم (رياض باشا) اطفاء نوري والله الا ان يتم نوره وان كره الظالمون . اماتني بدعوى الحرص على الخواطر ان اثيرها الى الفتنة بل خاف ان اكشف الحجاب عن حقيقة احواله فزعم اني ناصبته الشر نثرة منه وتشيعاً لسواد . وما انا في شيء من ذلك . فاني اعز نفساً واتبل قصداً من ان

تستميلني الاشخاص ؛ وانما اميل مع المقاصد . فما كان منها ملائماً للمشرب الذي احسبه حقاً ، فذلك من دون المشارب مشربي وما كان مغايراً للمبدأ الذي اراه عدلاً رميت به من حالق رمي حانق . وانا تحت سماء الانصاف على ارض الراحة بين اهل الحرية اذكر اني قومي في مجالس الظلمة وتحت سياط الجلادين فانوح نوح الثاكلات واري علائم النعمة في معاهد المساواة فاذكر شقاء سربي في ربوع الظلمة فأذرف الدمع ممتزجاً بسواد القلب » .

« رأيت من الواجب علي ان اصرف العناية والاجتهاد الى تهذيب العبارة وتقريب الاشارة لتقرير المعنى في الافهام من اقرب واعذب وجوه الكلام وانتقاء اللفظ الرقيق للمعنى الرقيق متجنباً ما كان من الكلام غريباً وحشياً او مبتذلاً سوقياً . فان اتحاف على الغريب عجز وفساد التركيب بالخروج عن دائرة الانشاء داء اذا سرى في القراء والمطالعين ادى الى فساد عام واغلق على الطلبة معاني كتب العلم . والتنازل الى إلتقاط العامة يقضي بإماتة اللغة وضياعة محاسنها »[1] .

هذا هو الدستور الكتابي الذي رسمه اديب اسحاق لنفسه فبقي وفياً له في بحوثه وقد اراد ان يعتمده كذلك الكتّاب المجددون لان منهم من فهم بالتجديد خروجاً على اصول اللغة . ومن اهم القضايا التي تصدى لها اديب اسحاق في بحوثه قضية تأخر الشرق بالنسبة للغرب وقد عزا اسبابه الى استبداد زعمائه وفي هذا يقول : « قضى على الشرق بجهل عامته واستبداد خاصته وخيانة زعمائه وتعصب رؤسائه ان يهبط بعد الارتفاع ويذل بعد الامتناع ويكون هدفاً لسهام المطامع والمطالب تعبث به ايدي الاجانب » . بهذا الانشاء الرنق المسجع الوجيز يعبر بسطر واحد ما كان اسلافه يعبرون عنه بصفحات . الا ان اديب اسحاق وان سار على النهج الاصولي من حيث سلامة الجملة وصحة التعبير فانه ما كان مقلداً في المعاني ولا حتى في المباني وكان حرباً على التقليد الاعمى في كل مجال .

بيد ان اديب اسحاق تلميذ الثورة الفرنسية البار ما كان حتى في حمى تمرده الاجتماعي ليقضي على الحنين في نفسه الى موطن احلامه لبنان . وما قاله فيه :

« ومن فوق ذلك جبال لبنان تستهزئ بعاديات الزمان لزم رؤوسها الشيب فازدادت جمالاً تنادي لسان حالها رب زدني كمالا فكان في حاميها

(١) في باريس كتب في الصحف الفرنسية عن السياسة المصرية خاصة والشرقية عامة .

الشتاء وفي عنقها الربيع وفي قلبها الخريف وتحت اقدامها الصيف . والبحر من وراء ذلك يخدجها بعينه الزرقاء : فترده صخور السماء . فيعود راغباً واجداً : مزبداً حقداً يدفع سابق موجه اللاحق انكساراً كمن هزم الجيش فارتدت طلائعه فراراً » .

الصورة الخصبة في بيان بليغ كانت الوسيلة الاولى التي يلجأ اليها اديب احداق في التعبير عن افكاره في جميع المواقف . وقد حذا الكثيرون حذوه من بعد .

جرجي زيدان (١٨٦١ — ١٩١٤)

سافر الى مصر سنة ١٨٨٤ ليكمل دراسة الطب التي بدأها في لبنان . فانصرف اول الامر الى الشؤون العلمية الصرف ثم استهوته الصحافة اليومية فحرر في جريدة الزمان نحو سنة عاد بعدها الى بيروت وألف كتابه « الالفاظ العربية والفلسفة اللغوية » ثم رجع الى مصر وعمل مديراً لادارة « المقتطف » واسهم بتحريره . ثم اصدر « الهلال » . كما ذكرنا ، الذي عاش معه ٣٢ سنة وما زال مستمراً حتى اليوم .

كتب في آداب اللغة العربية والتمدن الاسلامي ووضع تاريخ مصر الحديث في مجلدين والتاريخ العام عن ممالك آسيا وافريقيا . وتاريخ العرب قبل الاسلام . ووضع عدداً كبيراً من الروايات التاريخية التي ترجمت الى عدة لغات فكان ينقل بعضها فصولا متسلسلة في مجلته ناهجاً فيها نهج مواطنه جميل مدور في روايته عن عهد هارون الرشيد ونهج الاسكندر دوماس الاب . وقد استوحى مواضيعه اما من العهود الوسطى والفتح الاسلامي كما في « هارون الرشيد والبرامكة » واما من التاريخ الحديث من عهد محمد علي الى عرابي باشا الى الثورة التركية كما في « الانقلاب العثماني » .

ان له فضل الرائد في تاريخ آداب اللغة العربية وتبويبها في عصور حسب العوامل السياسية التي اثرت في تطورها . انشاؤه سهل واضح وطريقته قريبة من الطريقة العلمية رغم المآخذ التي اخذت عليها . اما في تفكيره فقد تأثر ، شأنه في ذلك شأن معظم طلاب العلم يومذاك ، بنظريات النشوء والارتقاء التي كان شبلي الشميل ينشرها في مصر على غير هوادة . وقد حاول زيدان تطبيقها في درسه تطور اللغة العربية وتراكيبها عبر العصور . وفي هذا يقول : « سارت اللغة سير الكائنات الحية بالدثور والتجدد المعبر عنه بالنمو الحيوي . فالوقوف في سبيل النمو مخالف لناموس الارتقاء . فلا

ينبغي احتقار كل لفظ لم ينطق به اهل البادية منذ بضعة عشر قرناً . ولا بأس من استعمال الالفاظ المولدة التي لا يقوم مقامها لفظ جاهلي . واذا عرض لنا تعبير اجنبي لم تستعمل العرب ما يقوم مقامه فلا بأس من اقتباسه» . وقد سار هو نفسه على هذه الطريقة التي ميزت رواد النهضة في مصر كما في لبنان . اما في درسه اللغة العربية فيعود الى اصلها معتمداً الاسلوب المنطقي الذي اعتمده ابراهيم اليازجي فيدرس تكون الافعال والاسماء والحروف والاشتقاقات والتأثيرات الخارجية عليها بعد اختلاط العرب بالاعاجم . ومن مميزات اللغة العربية في نظره كما في نظر اليازجي الاصوات والاعراب والايجاز ووفرة امكانات الاشتقاق والمرادفات والاضداد .

خليل مطران (١٨٧٢ — ١٩٤٩)

لا تذكر النهضة الشعرية في مصر الا ذكر معها الثالوث الشهير شوقي — مطران — حافظ . وكثيرون من النقاد قدموا خليل مطران على رفيقيه :

التزم خليل مطران العمل السياسي في لبنان . اول شبابه : فأيد الحادث التحررية التي قام عليها حزب تركيا « الفتاة » ضد عبد الحميد . ولما شعر بعزم السلطة على سجنه هرب الى باريس حيث استكمل ثقافته . ثم عاد الى مصر فمارس الصحافة في « الاهرام » واصدر « الجوائب المصرية » ثم « الجلة المصرية » ؛ وكان طيف عبد الحميد ما يزال ماثلاً امام عينيه . فكان هاجسه الاول صحفياً وشاعراً . وما روائعه في الشعر الملحمي سجل نيرون وبزرجمهر الا من وحي الطاغية واليتين بنهايته . وقد عرف كيف يفصل في قصائده المبنى على قياس المعنى بحيث يعبّر الايقاع عن مقاصده بقدر ما تعبر الافكار يسانده نفس خارق :

كل قوم خسالقو نيرونهم قيصر قيل له ام قيل كسرى

كان مرحلة وصل بين القديم والحديث . في جزالة تعبيره وعنفوان الكلمة امانة للتراث الاصولي ؛ وفي تصديه لقضايا عصره مشاركة وشق طريق لمدرسة جديدة . وابرز ما في عطائه الشعري الرائع — فيما عدا شعر المناسبات — سعيه المحموم الى التركيز في بناء القصيدة فاذا هي عمارة متكاملة الهندسة على تناسق ووحدة عضوية لا مجموعة ابيات لا تربط بينها الا القوافي والتفاعيل . وفي هذا يقول الدكتور فؤاد البستاني : « شعر مطران بناء . ولكنه ليس بناء باللبن سهل الانشاء ، سهل الزوال ، لا يدوم على الزمن ؛

ولا يقاوم عناصر الطبيعة . يتبرأ ويتآكل . ويتهافت : اذا ما ضربته الانواء ، واخنت عليه العوادي .

ولا هو بناء بالباطون يصب في قالب واحد ، على وتيرة واحدة . فلا تنوع . ولا ابتكار . انما هو بناء صعب المراس . وافر التكاليف . بناء بالحجر الصلد السليم المقلع . المنصوب المكسر . المنحوت الصفحة . يحتل مكانه على تياس . فيلتحم برصيفه مباشرة . لا خلل بينهما تسده حشوة . ولا فراغ تملأه وصلة او رقعة . انما هو صفحة قائمة متماسكة الاجزاء متلاحمة الفروع . كقوله في وصف الجبل الاصلد » :

كثير الثلوم ، كان الذي اذا زل ، يهوي على مبرد

وفي وصف الخلائق المستعبدة تبني قبرًا لفرعون :

صفر الوجوه ، نادياً جباههم . كالكلأ اليابس يعلوه الندى .
محنية ظهورهم ، خرس تخطى كالنمل دب مستكيناً مخلدا

وفي وصف قلعة بعلبك :

هم فجر الحياة بالادبار فاذا مر فيهي في الآثار
والصبا كالكرى نعيم ولكن ينقضي والفتى به غير داري
يغنم المرء عيشه في صباه . فاذا بان عاش بالتذكار
ليس تثار بعلبك سلام بعد طول الثرى وبعد المزار
ووقيت الغناء من عرصات مقويات اواهل بالفخار
ذكريني طفولتي واعيدي رسم عهد عن اعيني متواري .

ولئن حلّق شاعر القطرين في شعره الملحمي فهو لم يقصر ابدًا في شعره الوجداني . فقصيدته « الماء » مثلاً نموذج حيّ لانعكاس الالم الجدي على نفسية الشاعر فاذا كله خيال قلباً وروحاً وجسماً واذا الحنين يعاوده الى حبيبة اودى بها المرض وكانت قد اوحت اليه بـ « حكاية عاشقين » . من خلال ذاتيته تلك ينظر مطران الى الوجود فيراه بلون عنه . كالحاً يئن ويتشاطره الشقاء ، فاذا بالصور الحسية المتعاقبة تعبّر من تلقائها عن أساه :

فكأن آخر دمعة الكون قد مزجت بآخر ادمعي لرثائي
وكأني آنست يومي زائلاً فرأيت في المرآة كيف مائي

وصرف خليل مطران جهدًا كبيرًا في الترجمة المسرحية فعرّب من شكسبير « مكبث » و « عطيل » و « هملت » و « تاجر البندقية » ومن

كورناي « السيد » . وقد أخذ عليه بعضهم وتنيم تعيبه في « الغربال » عدم التقيد الكلي بالنص الاصلي باعتبار انه لم يكن متضلعاً التضلع الكافي من الانكليزية فعرّب عن ترجمة فرنسية آثار شكسبير .

خليل مطران في الشعر ديوان « الخليل » (جزءان) و « النيرونية » و « الاسد الباكي » و « آثار بعلبك » وله في النثر بحث في التاريخ العام (ستة اجزاء) .

فرح انطون (١٨٧٤ — ١٩٢٢)

هرب من ظلم عبد الحميد الى الاسكندرية سنة ١٨٩٧ وحرر في « الاهرام » ثم أنشأ مجلة « الجامعة العثمانية » وشعارها إصلاح الدولة العثمانية . ولما يئس من اصلاح يتم على يد من لا يقوم سلطانهم الا على الفساد غيّر اسم مجلته فصارت « الجامعة » وجعل نزعتها فلسفية سياسية اجتماعية تعمل على نشر الافكار التحررية الغربية ولا سيما افكار الثورة الفرنسية وفولتير وريتان وقد عرّب الكثير من آثار هذين الكاتبين .

مع اصداره « الجامعة » ترجم عن الفرنسية روايات كان ينشر بعضها في مجلته . الا ان عمله الصحفي لم يؤمن له اسباب الحياة على ما كان يتمناها فانتقل سنة ١٩٠٥ الى نيويورك وكانت شهرته قد سبقته الى اوساط المغتربين فيها . وهناك شاء ان يعمل في التجارة والصحافة معاً فاصدر جريدة « الجامعة اليومية » فما حققت امانيه فعاد الى مصر بعد اعلان الدستور العثماني وانصرف الى الأدب السياسي والى الكتابة في المسرح ترجمة واقتباساً وتأليفاً . الا ان بعض ترجماته كان من نوع الدراما العامية الغنائية الرخيصة .

اهم مؤلفاته خمس روايات اجتماعية هي « اورشليم الجديدة » . « سياحة في ارز لبنان » . « المدن الثلاث او الدين والعلم والمال » . « مريم قبل التوبة » . و « الحب حتى الموت » واربع مسرحيات هي : « صلاح الدين » . « مصر الجديدة » . « بنات الشوارع » و « ابو الهول يتحرك » وقد تكون روايته « اورشليم الجديدة » و « الحب حتى الموت » افضل آثاره . ففي الاولى يتناول قضايا اجتماعية وفلسفية ودينية في اطار غرام رومنطيقي وقد صوّر فيها بشكل مؤثر واسلوب بسيط عنوي مدينة اورشليم يوم عيد الميلاد وكان العرب قد فتحوا الشام وحاصروا بيت المقدس .

اما « الحب حتى الموت » التي نشرها بالتسلسل في مجلة « الجامعة » فتروي قصة المهاجر اللبناني الى اميركا في ذلك العهد . وهي من اولى المحاولات الروائية العربية .

بطل الرواية شاب اسمه « اميل » يعزم على السفر فيأتي نسيب له راهب يودعه عند رابية بين البترون وطرابلس (منطقة المؤلف) . ويدعه هناك لانه اراد ان يسافر خلسة الى الولايات المتحدة : فالهجرة كانت محظورة عندذاك . تدور بين الراهب والفتى محاورة طريفة يقول فيها اميل انه عزم على مغامرة السفر لأنه يأبى حياة خانعة في ظل جدران اربعة . وينطلق المسافر من على شاطئ البترون في قارب يدعوه « بالتهريب » الى الباخرة . وفي الفصل الثاني يصف المؤلف مجازفة بطله في نيويورك حيث يجد نفسه غريباً مستوحداً . فما لبث ان عشق فتاة من اصل لبناني تبيّن له في آخر الامر انها اخته وقد سافرت مع امها وهي طفلة فتبنتها رفيقة لها واعطتها اسم عائلتها بعد موت امها .

الفن الروائي قد يكون بدائياً هنا من حيث التحليل والتسلسل لكنه يمهد لنشأة الرواية العربية بمفهومها الحديث .

نجيب الحداد (١٨٦٧ – ١٨٩٩)

عمل في « الاهرام » تسع سنوات ثم أنشأ مع اخيه امين « لسان العرب » في القاهرة ثم نقلها الى الاسكندرية وأسس مع غالب طلبات « السلام » اليومية وكتب في « انيس الجليس » فبرز في ادب المقالة والشعر والمسرحية الشعرية ترجمة وتأليفاً . من اهم آثاره . على قصر حياته . في الشعر : « تذكار الصبا » و« منتخبات نجيب الحداد » وفي النثر « عداوة الآخرين » . « المهدي » ، « غرام الملوك » (مسرحيات) و « العاشقة المنكرة » و « فرسان النيل » و « غصن لبنان » (قصص) و « اديب الملك » و « السيد » و« برنيس» (ترجمات) .

تميز شعره بصفاء الديباجة وقوة التركيب ونثره بالسهولة الممتنعة والطرافة .

طانيوس عبده (١٨٦٩ – ١٩٢٦)

بدأ صحفياً في الاسكندرية فاصدر « الرقيب » مع حنا النقاش فلم تعش . فأنشأ « الشرق » يومية و « الراوي » اسبوعية قصصية . ثم عاد الى لبنان سنة ١٩٠٩ لعل حظه فيه بالنجاح يكون اوفر بعد بريق التبدل السياسي . لكنه نجيب بعد حين ولم ينجح الا في الشعر . لا سيما النكاهي الذي جمعه في ديوان خاص . ورجع الى مصر سنة ١٩٢٦ وتابع ترجمة الروايات وكان قد بدأها في لبنان فكانت حصيلة ترجماته ما يزيد عن خمسين قصة عن

الفرنسية باسلوب ماتع على بساطة . ومن اشهر هذه القصص « روكامبول » و « البؤساء » و « عشاق البندقية » وكان يتوجه فيها الى الجمهور لا الى النخبة، لذلك كان لا يتقيد بالاصل . قال عنه صديقه الاخطل الصغير : « انظر الى الرجل النشيل الشاحب او بالاحرى الى هذا الوجه المخروق بالسويداء جالساً الى طاولة صغيرة عليها كأس من العرق في قهوة « خضراء » وبيده رواية فرنسية يطالع العشرين من صفحاتها دفعة واحدة ثم يضعها جانباً ويتناول اوراقاً وقلم رصاص بطول الاصبع ويأخذ في درز الكلمات درزاً سريعاً فما هو الا نصف ساعة حتى يملأ نحو الخمسين ورقة بحجم الوسط من غير ان يراجع كلمة او يأتي بحركة الا ان يمد يده الى الكأس المرة بعد المرة » .

مصطفى الرافعي (١٨٨٠ — ١٩٣٧)

اصله من طرابلس، ولد وعاش في مصر عيشة رومنطيقية . احب مي زيادة حباً عنيفاً لم يلق جواباً فتركت فيه خيبة الهوى مرارة عنيفة جعلته يكتب بمن وحيها معظم خواطره الشعرية ومنظوماته . من اهم آثاره « رسائل الاحزان » و « السحاب الاحمر » و « حول المرأة والحب » و « وحي القلم » و « ديوان الرافعي » .

فليكس فارس (١٨٨٢ — ١٩٣٧)

نشأ في مصر ومارس فيها الصحافة وكتب شعراً ونشر ديواناً عنوانه « التيارة » وكان يؤمن بان الشعر موسيقى قبل ان يكون أي شيء آخر . وكان لادب المهجر الاميركي اثر في نتاجه . لا سيما وانه سافر فترة الى اميركا واتصل بمغتربيها اللبنانيين . كتب في عدة مجلات ولا سيما مجلة « سركيس » وعرف خطياً مفوهاً ومترجماً قديراً ، لا سيما في ترجمته لنيتشه « هكذا تكلم زردشت » ولموسيه « اعترافات فتى العصر » و « رولا » وكتب روايات اخلاقية منها : « شرف وهيام » و « الحب الصادق » وله بحث ادبي دقيق بعنوان « رسالة المنبر الى الشرق العربي » .

اسكندر شلفون (١٨٨٢ — ١٩٣٧)

نظم شعراً زجلياً في رواياته الغنائية التاريخية مثل « السبايا » التي مسرحها روما القديمة وألف قصصاً اجتماعية فنية اهمها : « صبر العذارى » و « معبد

النيران » . بيد انه اشتهر بنوع خاص في عمله الموسيقي وفي بحوثه عن الموسيقى وكان ينشرها في مجلته الشهرية « روضة البلابل » .

امين تقي الدين (١٨٨٤ – ١٩٤٧)

اسس مع انطون الجميل مجلة « الزهور » في القاهرة فكانت على حق ندوة الادباء والشعراء على اختلاف المذاهب . كان امين شاعراً مطبوعاً تأثر بالرومنطيقية وكتب من وحيها قصائد حنين الى لبنان فضلاً عن الغزليات ومن شعره قصيدته التي لحنت :

الله يا لبنان ما اجملك	واروع الشيب الذي جللك
بين يديك الملك في جاهه	على الثرى او عزه في الفلك
سبحان من خبأ فيك الصفا	وسل من قلب الصفا جدولك
انت نعيم الله في وعده	مثلت بالنعماء من مثلك

مي زيادة (١٨٨٦ – ١٩٤١)

الآنسة مي كما كانت توقع هي ولا شك ابرز اديبات عصرها . ولدت في ناصرة فلسطين ولما بلغت الرابعة عشرة دخلت معهد عينطورة للبنات في لبنان حيث اكملت دراستها . ثم مضت الى القاهرة وكان ابواها قد انتقلا اليها وانصرفت الى التدريس بنبوغ . وفي سنة ١٩١٠ نشرت باكورتها « ازاهير حلم » (بالفرنسية) بتوقيع ايزيس كوبيا . ثم اسهمت في تحرير « اخبار السيدات » التي كان يتولى ابوها ادارتها عند ذاك . فلفتت اليها المثقفين وجعلت من منزلها ندوة ادبية يلتقي فيها ادباء عصرها . وقد وصفت آمي خير هذه الندوة قالت :

« كنا ندخل هذا الصالون من باب عن يمين المدخل . واني ما ازال اذكر المقاعد العربية والكراسي المغطاة كما والنوافذ المعلقة فوق البيانو ، وتلك الزاوية مع المرآة المطعمة بالموزاييك . كان الثلاثاء يوم استقبالها . وكان الزائرون الاولون يفدون حوالى الساعة الرابعة . غير ان ما كانت تستقبلهم اول الامر بل كانت امها تنوب عنها فتقدم القهوة وشراب الورد والسكاير . ثم عندما يضج الصالون بالناس تقبل مي مرتدية لباساً انيقاً على غير تصنع فتجلس قرب من شاءت ان تكرمه ضيفاً على الصالون .

وكان بين رواد هذا الصالون : وهو الاول من نوعه في العالم العربي : لطفي باشا السيد . داود بركات : خليل مطران . انطون الجميل . ولي الدين

يكن . شبلي الشميل . اسماعيل صبري . يعقوب صروف . طه حسين . جرجي زيدان . فارس نمر وخليل تابت .

وكانت اهداف الصالون واضحة . اولا البحث عن اسلوب عربي جديد يتوسط الاسلوب القديم واللغة المحكية ثم محاولة التقارب الثقافي بين الشرق والغرب وخصوصاً خلق مناخ ملائم لتنتج المواهب الجديدة .

كانت مي تشترك في جميع الاحاديث . وتوجه النقاش وكان لها من الذكاء ما يفرض كلامها على الجميع . كانت ترى في احترام الحاضرين لها الامل الكبير الذي يعلقه هؤلاء على الغنج الذي سيفتح امام المرأة الشرقية الحياة الاجتماعية من بابها الواسع ويسمح لها بالتالي ان تسهم في نشاط الرجل » .

كتبت مي في تلك الفترة في ابرز صحف مصر « كالاهرام » و « الهلال » و « المنتطم » و « المقتطف » و « اليروغره » و « الاجبشن ميل » (بتوقيع رأفت خالد) والقت خطباً اجتماعية في المناسبات وحاضرت والتحقت بالجامعة المصرية .

اولعت مي منذ صباها بجبران وقد قرأت « الاجنحة المتكسرة » فاهتزت لها وتراسلا مدة طويلة لكنهما لن يلتقيا . لقد رأت في صاحب « النبي » اكثر من رفيق يسدد وحدتها المعنوية . رأت فيه المثل الاعلى للفنان الشرقي . دعته الى مصر فما استطاع ان يلبي رغبتها فقال معتذراً في احدى رسائله : « اي رجل يستطيع ان يترك بناء صرف عمره بنحت حجارته ونحتها حتى وان كان ذاك البناء سجناً له . فهو لا يقدر او لا يريد ان يتخلص منه في يوم واحد » . الا ان جبران رغم بقائه في نيويورك ظل صديقاً وفياً لمي وموجهاً روحياً لها وقد ظهر تأثيره في كتاباتها الاولى لا سيما من حيث التفكير الصوفي . الا انها ما كانت لتشاطره التمرد العنيف على التقاليد ولا آراءه المتطرفة في « المجنون » و « العواصف » .

واطل الخريف قاتماً على مي وقد مات اهلها واكثر اصدقائها فوجدت نفسها وحيدة اكثر من ذي قبل فساورها نوع من الهستيريا السوداء فعادت الى لبنان تطلب الشفاء وهي ما انقطعت عن زيارته ولا عن السفر الى اوروبة في مواسم الصيف . ثم عادت وقد تحسنت صحتها الى حد ما الى القاهرة لتقضي البقية الباقية من حياتها اسيرة الوحدة والكآبة والمرض .

صرفت مي اهم نشاطها الادبي في الدفاع عن حقوق المرأة . فكتبت سيرة « باحثة البادية » : و « عائشة تيمور » لتظهر الدور الكبير الذي يمكن

ان تقوم به المرأة المثقفة . وكتبت في الادب الوجداني خواطر نشرت بعضها في « ظلمات وشعة » حيث عبرت عن احلامها وآمانيها وآرائها في الحياة والناس وصورت نفسها الغريبة التي تنادي الغريب،لتحصي له الاثقال التي قوست كتفيها وتسبح بكل قواها : « بي احتياج الى الألم . أليس بين الناس من يثقل تعذيبي» ؟ ثم تهيم على وجهها في العالم سائلة عن مصيره « من اين واني اين ؟ »

« والآن اذ اسمع الرياح تعول وتنتحب . والاجراس تطن طنين الغم والكرب . والارغون يعزف الحان التفجع والانتحاب . ثم تتراءى في اودية . وجبال زرعت فيها العظام منا وامتدت الاعصاب . وتنبسط مخيلتي سهول ومروج نفذت من اجسامنا وارتوت بدمائنا . وتفسح حولي اصوات الباكين الحزانى . وتتزاحم امام ناظري جميع مشاهد الفراق — فراق مر يختمه الموت وفراق امر تقضي به الحياة . فأذوب وانضاءل ثم اذوب حيال بحر الشقاء العام حتى البث ذرة واحدة متوجعة متلهفة متضجعة تتوق الى التلاشي والنسيان . اذ ذاك تنتشع عن عاتقي حجب الجبل والانانية . وتلقي في يد الروح الاعظم في فضاء اللانهاية . ويحملني جناحاه قريبا الى حيث اجد الموت حدثاً عرضياً والفناء خيالاً زائلاً . اذ ذاك ينمو كياني ويتعالى ويعظم فيتشوق هواء الحياة الواحدة السائدة في كل مكان » .

كتبت مي بحثاً في المساواة . تطرقت فيه للاشتراكية ومبادئها وجمعت خطبها الاجتماعية في « كلمات واشارات » ودراساتها النقدية في « الصحائف » و « بين المد والجزر » واراءها التوجيهية في « سوانح فتاة » . لقد اقتنت عدة لغات فترجمت عن الانكليزية « رجوع الموجة » وعن الالمانية « ابتسامات ودموع » لماكس مولر وعن الايطالية « نماذج من الشعر الرومنطيقي» . اما اسلوبها الكتابي فرشيق سلس بارز الشخصية غني بالصور : « اني اكره التقليد الذي يشوه المقلد ويمسخ المقلد واحب ان اكون انا انا في كتاباتي » . اما افكارها فكانت مزيج من التقدمية الاجتماعية لا سيما بالنسبة للمرأة ومن الحلولية الصوفية التي اخذتها عن جبران بنوع خاص .

بشر فارس (١٩٠٦ — ١٩٦٣)

قد يكون بشر فارس الاديب اللبناني الوحيد في مصر الذي لم ينطلق من دنيا الصحافة . لقد عاش في قطيعة مع المجتمع فتنسك للأدب وللتعمق

في قضايا الوجود . كان صعباً مع نفسه يمحت ويعتقل . كتب نثراً وشعراً على طريقته الخاصة وترجم وحاضر . من ابرز آثاره :

« جبهة الغيب » وهي احدوثة شرقية : على حد تعبيره ، في خمس مراحل اخرجها بشكل مسرحي يوافق مفهومه الخاص لهذا النوع الادبي . كان يعتقد ان المسرح الذي لا يتحقق فيه نضال الابطال فعلاً وقولاً انما هو مسرح كاذب فاتر . اما موضوعها فما هو الا توسيع لفكرة اقصوصة حوارية له عنوانها « رجل » ظهرت في مجموعته « سوء تفاهم » خلاصتها ما يلي : في زاوية من الارض جبل عسير المنال على رأسه بيت منقور من ناحية السماء : طريقه وعر والتصعيد فيه خدعة الموت . ولم يقو على بلوغ هذا البيت سوى اثنين . وقد عاد احدهما كسيحاً من الاعياء والآخر مكفوفاً . عادا وبين يديهما الابدية . ويدور الصراع حول حرية الانسان الكائن المحدود الذي يسعى الى الخلود عن طريق امتلاك الابدية . لكنه صراع نفس تريد في جسد لا يستطيع : اي صراع مصيره العجز عن بلوغ الهدف وبقاء الانسان كتلة « هموم تحترق » وتترجح بين ارض تشد الى تحت وسماء تشد الى فوق وتبقى عالقة بين الطرفين معرضة لاعاصير الوجود . يقول بشر فارس في هذا الكتاب :

« رأيت صخوراً توشحت بالياسمين . اخذت ترقص دوارة . بين لفتتين غت اليه يصعد . شبح شجرة يبس عودها وفنا . ظل الشبح يسرع من مرقى الى مرقى : تدفعه يدان على مثال يدي : الا انهما من صوان . كان الليل اسود : ولكن في غيابة جفني فز برق . ما كنت اجرؤ على نداته » .

كان يبحث في المعاجم ليرى هل قالت العرب « نحته » او « نحت اليه » فاذ وجد ان الوجهين جائزان اختار اقلهما شيوعاً . ذلك انه كان يأبى ان يستعمل الا اللفظة النادرة .

« مفرق الطريق » وهي مسرحية يعالج فيها مشكلة المرأة الشرقية المحرومة من اطلاق شعورها المكبوت . عنوانها يعني نقطة التقاء العقل والشعور وانطلاق التجاذب بينهما . فيها جانبان : جانب مظلم يقهر فيه الشعور العقل فينحدر المرء : وقد عمي رشده . الى غاية تحترق عندها النفس . وجانب منار فيه يصرع العقل الشعور وينتصر . وموضوع المسرحية وحركتها تنحصران في محاولة البطلة سميرة سبر اغوار ماضيها المخصب . من خلال الحاضر الجاف عن طريق تداعي الافكار والتأمل الباطني . تقول سميرة :

« اني عرفت ذلك السراب بل شربت منه وكان الماء اجاجاً على لذة . واني اود لو ارتشفه مرة اخرى . آه حتى هذا لا يفوتني اليوم . اخب معترك قتلاه الاوهام » .

اما في شعره فكان مغلقاً اكثر منه في نثره وقد تأثر الى حد بعيد بملارميه ورمزيته . تفهمه باحساسك اكثر مما تفهمه بالمنطق . ويعتبر بشر فارس من رواد الشعر الحر الاصيل الذي يشكر لزيف المشعوذين وهو يرى ان مثل هذا الشعر يلتزم امرين : الاول هو العناية بامر التعبير بحيث يكون اللفظ صحيحاً موفور الايحاء . لا قلق فيه ولا انفعال . والثاني . هو الحرص على الجرس الدقيق الخفي بوساطة التنغيم الحاذي للتفعيل العروضي والتجنيس اللفظي بلا استدعاء . وقوام هذا الشعر صورة مسطرة تنضح شيئاً فشيئاً :

وحفيف روحي بذهبي حلق حقل من الفتن
نزهة الارض من سقمي انها اسطورة الزمن

يقول بشر فارس في طريقته الكتابية في الشعر : « اكافح نظرياً وعملياً لأجل رد سيادة القول الى الشعر لانه صاحب كلمة لا مكرر اللفظ . وبين الكلمة واللفظ ما بين اللحم والعظم . الاول يرنم فيه نشيد الحياة والثاني يرن رنة جوفاء اذا ما نقرت عليه . الشعر لا غنى له عن شرارات الثورة » .

ولبشر فارس بحوث عدة منها : « التصوير العربي والاسلامي » و « سر الزخرفة الاسلامية » . و « كيف زوقت العرب كتب الفلسفة والتقنية » . وكتب بالفرنسية اطروحته « العرض عند عرب الجاهلية » . ونشر بحوثاً في دائرة المعارف الاسلامية وترجم « مشرق الطريق » وهي مجموعة قصص وضعها بالعربية الى الفرنسية . ووضع « سوانح مسيحية وملامح اسلامية حول خطوط مزوق من القرن السابع الهجري » وله بالفرنسية قصائد وقصص رمزية .

الباحثون

انصرف الى البحث العلمي والتاريخي والفلسفي في مصر عدد كبير من اللبنانيين نذكر اسمهم :

فؤاد صروف : بعد ان مارس الصحافة في « الاهرام » وتولى « المقتطف » .

حتى سنة ١٩٥٢ مكملاً رسالة عمه يعقوب في العرض المشوق المبسط لشؤون العلم ؛ وادار مجلة « اختار » المقتبس عن « ريدرز ديدجست » ؛ عاد الى لبنان وتولى منصب نائب رئيس الجامعة الاميركية واتحق بالانسكو وهو اليوم عضو في مجلسها التنفيذي[1] . اما في مصر فقد كتب عدة كتب منها « فتوحات العلم الحديث » ؛ « اساطين العلم الحديث » ؛ « آفاق العلم الحديث » ؛ « الفتح مستمر » ؛ « مذبح المريخ » (والمريخ هنا اله الحرب) و « النار الخالدة » الذي تناول فيه مبادئ واصول الطاقة الذرية منطلقاً من قول فريد الدين العطار الصوفي القائل : « اذا فتشت اية ذرة وجدت في قلبها شمساً » . وقد تميز اسلوبه بالبساطة ودقة التعبير واستعمال المصطلحات القريبة الفهم .

نقولا يوسف الحداد : انصرف الى علم الاجتماع والنفس فكتب في المجتمع والديموقراطية وترجم في هذا الحقل وله كذلك روايات يغلب عليها الطابع العلمي منها « آدم الجديد » و « ثورة عواطف » و « الحقيقة الزرقاء » .

يوسف كرم : اشتهر ببحوثه الفلسفية وتعريبه « الفلسفة اليونانية » ودراسته لمختلف حقباتها باسلوب علمي رصين .

محمد رشيد رضا : وقد اسهم مع الشيخ محمد عبده في حركته الاصلاحية وكتب « الوحي المحمدي » . و « انجيل برنابا » وبحوثاً دينية اجتماعية دعا فيها الى التساهل والتطور .

اسعد خليل داغر : كتب في التاريخ ومن اهم بحوثه « تاريخ الحرب الكبرى » وله ترجمات تاريخية متنوعة . وقصة عنوانها « الاميرة المصرية » .

نجيب عقيقي : وهو ما يزال يمارس التعليم الجامعي في القاهرة منذ عهد بعيد . له دراسة في الأدب المقارن ورواية عنوانها « برج بابل » وصف فيها هجرات اللبنانيين الى مصر منذ اواخر القرن الماضي وجعل شارع النجالة وحي الظاهر مسرحين لها . وقد ظهرت له دراسة ضخمة « المستشرقون » في ثلاثة مجلدات رتبها على الحروف الابجدية بحسب البلدان والاشخاص متناولا سيرة المستشرقين من كل بلد واعمالهم محللاً ناقداً واحتوت الدراسة فهارس علمية ومراجع المؤلفين .

---

(١) الف في لبنان عدة كتب لكنها لا تدخل في نطاق بحثنا .

المسرح

اسهم معظم الكتاب اللبنانيين في كتابة المسرحية ترجمة وتأليفاً ، كما رأينا . اما ظهور المسرح العربي في مصر فيرجع الى سنة ١٨٦٧ بعد ان رحل اليها من لبنان سليم النقاش مع بعض عناصر الفرقة التمثيلية التي كان انشأها عمه مارون في لبنان وجاء معه بمسرحياته المنظومة الثلاث : «البخيل»، و «ابو الحسن المغفل وهارون الرشيد» ، و «الحسود» فقدمها اول مرة على مسرح الاسكندرية . وقد عاون سليم النقاش في عمله اديب اسحاق . ثم تركا هذه الرسالة الشاقة ليوسف الخياط فقام بها حتى الحرب الاولى الا ان هذا المسرح استمر بدائياً الى حين ظهور لبناني آخر هو جورج ابيض وكان قد تتلمذ على سيلفان في باريس واسس سنة ١٩١٢ فرقة جديدة استأنفت نشاطها بعد الحرب . وكانت المسرحيات التي تمثل اما مترجمة واما مقتبسة وكثرها مستوحى من التاريخ العربي مثل : «جهاد الاحرار» لانطون الجميل ومن الكتب المقدسة مثل «مثل هيرودس» لعبدالله البستاني صاحب «البستان» . وتنظمت شؤون المسرح بعد ان فتحت له دار الاوبرا ابوابها وتألفت فرقة قومية بادارة خليل مطران .

كاتبات بالفرنسية

ثمة كاتبات لم يكتبن الا بالفرنسية مثل : جان ارقش . التي ولدت في الاسكندرية وتخصصت في الادب والموسيقى وقامت برحلات عدة في الشرق وفي اوروبة واهم ما كتبته وقد ظهر في باريس بين ١٩٣١ و ١٩٣٨ : «عبر في مرآتي» . و «الفرقة العالمية» و «الامير ذو الصليب» . في الكتابين الاولين خواطر شعرية وانطباعات مبتكرة الاسلوب . موضوعاتها تستمدها من اشياء عادية جداً كالنافذة او الغسيل المنشور او حديقة الازهار او طلوع البدر فتنطلق منها الى تأملات عميقة في الوجود والانسان . تقول مثلاً : «القمر يتسلل الى غرفتي ويرتسم في الليل صليباً من الضوء الابيض الميت . اسير بدون ضجيج في غرفتي لا وحدي . حتى بدون هذا الظل الكبير الذي تلقيه الشمس الغاربة على جوانبي . وحدي مع كل الفراغ الذي اورثه يوم طويل عقيم فائر : التي برجلي العاريتين على هذا الشحوب اللاصق بالارض : وعندئذ ينبض العرق خلال الحمى اللاهثة التي تمر . الاقدام ... كلها تغيب في الليل» .

اما « الامير ذو الصليب » فهو سيرة الامير فخر الدين تروي فيها انتصاراته المتعاقبة ولا سيما موقعة عنجر وتصف حنكته السياسية وميله الى البناء وتصور قصر بني معن وتبرز اثر حضارة فلورنسا في تفكير الامير وذوقه الجمالي .

آمي خير : وقد كتبت في حقول متنوعة في الشعر والقصة والرواية والبحث . من كتبها الروائية « ضجة في باب توما » . « سلمى وقرينتها » ، « حداثة برينيس » ، و « اخواتي » وقد تميزت بوصف القرية اللبنانية في جوها الطبيعي قبل الحرب وحياة الفلاح الآمنة وضيافته السخية وتعلقه بالارض كما تميزت بتصوير الريف المصري في بساطة اهله وبؤسهم وظرفهم .

في الشرق العربي خارج مصر

لئن كانت الهجرة اللبنانية الى مصر اتسمت بطابع خاص كما رأينا فتميزت بالعدد والفاعلية فانها لم تنحصر فيها من دون سائر البلدان العربية . وثمة من بلغ تونس والسودان واسهم بالصحافة فيها كما رأينا . وثمة من قصد الى المملكة السعودية كالريحاني والى العراق وفلسطين وسوريا منذ عهد بعيد او قريب .

ففي العراق برز آل الصدر (واصلهم من جبل عامل) في البحوث الدينية ولا سيما فيما يتعلق بالشيعة . ومن علمائهم العلامة حسن الصدر الذي عرف مؤرخاً ومفسراً ومجتهداً (١٨٨٥ـ١٩٣٥) ومن آثاره الكثيرة « تأسيس الشيعة الكرام لعلوم الاسلام » و « تعريف الجنان في حقوق الاخوان » و « وفيات الاعلام من الشيعة الكرام » .

ولمع في بلاد الرافدين الاب انستاس ماري الكرملي وهو من آل عواد (١٨٦٦ـ١٩٤٧) ببحوثه اللغوية المعمقة ودراساته التاريخية . فكانت مجلتاه « لغة العرب » و « دار السلام » ملتقى ادباء العراق . وقد اسهم في حركة الاستشراق وفي نشر المخطوطات القديمة . له اكثر من خمسين مؤلفاً منها : « اغلاط اللغويين الاقدمين » ، و « خلاصة تاريخ العراق » ، و « الفوز بالمراد في تاريخ بغداد » ، و « والالفاظ العربية في اللغة الفرنسية » . و « حكايات في اللغة الدارجة » ، و « العرب قبل الاسلام » ، و « الالوان عند العرب » ، وتاريخ الملابس وتطورها عند العرب » .

اما في سوريا فقد كثر اللبنانيون الا ان سهولة التنقل بين البلدين

المجاورين جعلتهم وكأنهم ما زالوا مقيمين . نذكر مثلاً : خليل الخنداوي وكوليت سهيل خوري في القصص وماري عجمي في البحث .

ما في فلسطين فأبرز من اقام فيها من الكتّاب اللبنانيين وديع البستاني (١٨٨٦–١٩٥٤) وقد ترك التدريس في لبنان حيث نشأ ليتولى رئاسة الترجمة في القنصلية البريطانية في الحديدة (اليمن) . وبعد حين انتقل الى القاهرة ومارس الترجمة من الانكليزية فعرّب آثار الشرود بيشري في معنى الحياة والسعادة والطبيعة . ونشر سنة ١٩١١ اول ترجمة عربية لرباعيات عمر الخيام في سباعيات موشحة . وفي السنة التالية سافر الى لندن وقضى عامين فكانت له خلالها اتصالات بطاغور . فعرّب ديوانه « البستاني » وكتب مرجز « الاساطير الهندوية » ولما عزم على الرجوع الى القاهرة توقفت الباخرة في الطريق على اثر اندلاع الحرب الاولى فاقام مضطراً في الترانسفال حتى استطاع ان يرجع بعد سنتين الى فلسطين . وهناك بدأت مرحلة جديدة في حياته : مرحلة الدفاع عن قضيتها بعد وعد بلفور واستئناف النشاط الصهيوني ونشوب الاضطرابات فنظم ديوانه المعروف « الفلسطينيات » وكتب في الصحف العربية والانكليزية ملتزماً قضية الحق بكل جرأة الى ان وقع اسيراً بين ايدي عصابة « اغاغانا » فنقع في اسره « المياباراته » وكان قد عربها شعراً منظوماً وهي ملحمة هندية شهيرة تعتبر اخت الالياذة وتروي قصة حرب بني مهيرات في سفر ضخم . وعرّب كذلك « الرماياته » الملحمة الهندية الثانية وترجم الى الانكليزية رباعيات المعري . وكتب فيها دراسة مفصلة عن الاستشراق على فلسطين .

لقد ترسم وديع البستاني خطى نسيبه سليمان في الاسفار وترجمة الملاحم وخدمة القضية الفلسطينية وفي وفرة النتاج على تنوع .

الهجرة البعيدة

الهجرة اللبنانية بمعناها الكامل هي تلك التي اتجهت الى العالم الجديد وسائر الاقطار النائية وانتسبت بطابع جماعي متصاعد . وقد بدأ مدها في الثلث الاخير من القرن الماضي[1] فما انقضى خمسون عاماً حتى بلغت ذروتها وزاد عدد المغتربين والمتحدرين منهم على عدد المقيمين .

(١) انطون فريحه البشعلاني هو اول المهاجرين . نزل في بيمنتو سنة ١٨٨٤ وعاد في بركلن وقد كتب على ضريحه : « كان شجاعاً كالاسد وحكيماً كالحية ووديعاً كالحمل » وهذه الصفات تنطبق على غالبية المغتربين اللبنانيين .

ولا تختلف اسباب هذه الهجرة عنها الى اوروبة والى مصر الا اختلافاً نسبياً . واهم هذه الاسباب . كما رأينا : التطلع الى آفاق حرة لا تلبدها غيوم الظلم والاستبداد والميل الفطري الى المغامرة سعياً وراء الثروة والمعرفة واكتشاف المجهول .

ليس من المصادفة ان تكون قصة « روبنسون كروزوه » من اول الكتب التي عربت في بيروت ان لم تكن اولها . فان في معظم طبيعة اللبنانيين نزوعاً لتشبه ببطل دانيال ديفو في المجازفة والاتكال على النفس[1] . ولعل السبب الاقتصادي هو الاهم بالنسبة للهجرة الاميركية ، كما يؤكد الأدباء المغتربون انفسهم . يقول بولس نجيم في كتابه « المسألة اللبنانية » (بالفرنسية) :

« ان نظامي سنتي ١٨٦١ و ١٨٦٤ شوها لبنان وسلباه بعض اخصب مناطقه وحرماه خصوصاً من مرفأ بيروت الكبير اذ وضعاه تحت ادارة الباب العالي مباشرة فحرمت التجارة اللبنانية المزدهرة آنذاك من منفذ الى البحر . ولم يسمح الباب العالي بانشاء مرفأ على الساحل اللبناني فوجد اللبنانيون انفسهم ، وهم المكثارون ، في رقعة صغيرة تضيق بهم ... فكانت كل سنة تمر تشهد رحيل آلاف اللبنانيين من سكان الجبل » .

ويؤكد ميخائيل نعيمه في محاضرة له حول ملحمة الهجرة : « ان لبنان بعد ان جرّد من سهلي البقاع وعكار ومن مدنه الساحلية ، لم يبق للبنانيين الا ان يغتصبوا لقمة العيش اغتصاباً من قلوع جباله الصخرية ولم يبق لهم من موارد العيش الا تجارة التوت والزيتون والكرمة وزراعة الحبوب » .

ولكن حتى اوراق شجرة التوت لم تعد تصلح الا طعاماً للماشية بعد نكبة موسم الحرير . اهم المواسم ، على اثر فتح قناة السويس واتصال اوروبة عن طريقها باسواق الشرق الاقصى فضلاً عن ارهاق الضرائب .

ويقول ميخائيل نعيمه ايضاً : « بطريقة تشبه السحر راح تيار غريب يمتد في لبنان من الشواطئ حتى القمم . وهذا التيار الذي بدأ ضئيلاً اخذ ينتشر بسرعة حتى بات في نهاية القرن سيلاً جارفاً ... لقد كان نداء المجهول اقوى من ان يعاند . فمنهم من جرفهم التيار الى اميركة او الى افريقيا او الى الفيليبين واليابان وحتى الى اقاصي الصين ، وكلها بلاد كان المهاجرون . وهم في غالبيتهم اميون ، يجهلون كل شيء عن جغرافيتها وعن سكانها وعاداتهم ولغاتهم وتاريخهم وثقافتهم » .

ويذكر ادوار عطيه في كتابه (بالانكليزية) « عربي يروي سيرته » :

(١) ترجمها المعلم بطرس البستاني سنة ١٨٣٠ .

« فيما استمر بعضهم يعلل نفسه بمستقبل افضل في بلاده منتظراً من اوروبة ان تنقذها من النير العثماني حزم البعض الآخر — وفي عروقه دم فينيقي اوفر — امتعته ومضى نحو مواطن جديدة في مختلف انحاء الارض ».

وكانت اخبار الذهب الدانق في العالم الجديد والاساطير الكثيرة حول مغرياته تقع حداً لأي تردد.

قد لا ندرك كل ابعاد الادب المهجري في القارة الاميركية وفي سائر الاقطار النائية ان لم ندرس انطلاقة هذه الهجرة وتطورها والظروف التي حرت فيها استناداً الى تجربات الرواد المدونة في مذكرات الكتّاب بينهم.

في « ذكرى الهجرة » لتوفيق ضعون قصص . يؤكد واقعيتها. تبدو لغرابتها كأنها اساطير . وقد استخلصنا منها بعض ما تعلق بالسفر من لبنان وبالمرحلة الاولى بعد الوصول نثبته بايجاز كلي :

كانت الهجرة محظورة رسمياً في العهد العثماني . فكان يضطر الراغبون في السفر الى وسائل غير مشروعة كتلك التي يلجأ اليها المجرمون او الفارون من وجه القضاء.

عند وصول السفن الصغيرة الى مرفأ بيروت كانت توفد سماسرة الى اسواق المدينة والقرى لتعلن عن موعد سفرها فتتهافت جماعات من الجبل . وقد رهنت او باعت املاكها واثاثها ، تتجمع نفقات السفر . وتتم عملية الانتقال كما يلي : يسلم المسافر طالب السفر الى خفير الشاطئ فيصعد به من وراء الحدود الجمركية الى مركب محمل بالبضائع . فيتولى الربان ادخاله الباخرة كحمال . وهناك يتسلمه القهوجي ويضعه في احد المستودعات ويبقى هكذا حتى تصل الباخرة الى مرسيليا فيستلمه سمسار جديد ينزله في خان وضيع ويبقيه حتى يستنزف كل نقوده ثم يدفعه الى باخرة تقله الى اميركة فيلتقي فيها حشداً من امثاله المكرهين على الرحيل.

السفر البحري كان يومئذ بدائياً ومتعباً. ان صعد الركاب الى ظهر الباخرة تعرضوا للحر تارة وللبرد تارة. وان احتشدوا في الطابق السفلي تعرضوا للاختناق . وكثيراً ما كان يسلط عليهم البحارة زرابيش الماء الساخن لردعهم عن الاحتجاج. وكثيراً ما انزلتهم الباخرة في بلد غير البلد الذين يقصدون اليه فتشتد مأساتهم في ارض غريبة بين شعب غريب. وكان السعيد السعيد بينهم من وجد على الميناء شخصاً ينتظره او عرف عنواناً لرفيق او نسيب او حمل رسالة توصية لمن يؤمن له مكاناً يبيت فيه الليلة

الاولى . اما الذين لم يحظوا بمثل هذه النعمة وهم كثر فكانت الارصفة والاروقة مضاجعهم لعدة ليال . ويروي ميخائيل نعيمه في « سبعون » حكاية اسفاره . بعد ان تحسنت نسبياً اسباب السفر في عهده فيقول : « كنت اسافر ذهاباً وياباً على ظهور بواخر صغيرة قذرة تجمع اجناساً من البشر فأنام ولا سقف فوق رأسي الا السماء ولا سرير تحتي الا الخشاب الباخرة الصلبة ولا غطاء علي الا ثيابي . وكنت اصاب بالدوران واتألم من البرد والاقذار ومن الجوع احياناً » . لكن اللبناني الذي حوّل الصخور الى جنائن في بلاده ما كان ليتهيّب اقتحام الصعاب .

بعد الوصول كانت تبدأ المشكلة الثانية . مشكلة العمل : فالمهاجر الذي انفق ما معه على الطريق وهو يجهل لغة البلد الذي وصل اليه ماذا تراه يعمل ؟ لكن الحاجة التي تفتق الحيلة جعلته يلجأ الى نوع جديد من التجارة في تلك البلاد هو بيع « الكشة » . كان ينتش عمن يأتمنه من التجار : لقاء رهن ساعته او خاتمه : بعض ادوات الزينة والعطور والدمى وما اليها يطوف بها في علبة كبيرة على البيوت ويعرضها بالايماء والاشارة ثم يعود في المساء الى صاحب المتجر ليحاسبه ويجدد « اصنافه » لجولة الغد . حتى اذا طاف جميع احياء المدينة انتقل الى ضواحيها بعلبة اكبر ثم الى القرى النائية بعد ان يكون قد استقل ببضاعته وادخر المال الكافي لمثل هذا العمل .

وقد عبّر الشاعر مسعود سماحه الذي اصبح فيما بعد ضابطاً كبيراً في الجيش الاميركي عن المشقات التي قاساها هو وزملاؤه في اقتحام المجاهل سعياً وراء الرزق قال :

« كم طويت القفار مشياً وحملي فوق ظهري يكاد يقصم ظهري
كم قرعت الابواب غير مبالٍ بكلال وقرّ فصل وحر
كم تعرضت للعواصف حتى خلت أن الثلوج في القفر قبري »

ويقول الشاعر القروي في مذكراته :

حملت صندوق الزنك مملوءاً بمختلف السلع ومربوطاً بسيور جلدية الى كتفي . وضربت في مناكب ولاية ميناس متعرضاً لاقسى مشقات الحر والسيول الطامية . وفي الغابات الخضخة كنت ارفع بصري الى السماء كلما امطرت : واغني العنادل حتى يمتلئ قمي بالغيث المدرار . ثم اشتدت الازمة التجارية اثناء الحرب وكثر العمال العاطلون حتى ملأ المشردون طرقات العاصمة

فعمدت الحكومة الى قيد اسمائهم وابوائهم في باحات المخافر يؤمونها كل مساء وينقون باجسادهم المنهوكة على حبال مشدودة بين حيطانها. فاذا اصبحوا حل الموكلون بهم اطراف الحبال فسقطوا على وجوههم ثم خرجوا يبيعون. وقد طال سعيي شهوراً في تلك الاثناء ولم اجد مرتزقاً حتى فرغ آخر فلس من جيبي فقيّض الله لي احد هواة العود فشرعت في تعليمه مستلفاً اجرتي. ثم انتقلت من الداخلية الى ساوباولو واخذت اعلم في المدارس وفي البيوت ثم تحولت الى التجول في الولايات المتحدة كمعتمد لبعض المحلات التجارية. على اني كنت امتنع عن التجوال شهراً كاملاً مضحياً باجرتي لأنظم قصيدة في حفلة وطنية:

بعدت عني فعفت كنوز الارض لما عرفت قيمة كنزي
لا ابالي شبعت ام جعت واللحن شرابي وعزة النفس خبزي

اما الشاعر الياس فرحات وهو لم يبدأ حياته بائعاً متجولاً بل حاول تربية المواشي في البدء فلم ينجح فعاد الى «الكشة» المضمونة الربح على مضاضتها فانشد:

ونشرب مما تشرب الخيل تارة وطوراً تعاف الخيل ما نحن نشرب
حياة مشقات ولكن لبعدها عن الذل تصغو للابي وتعذب

وفوق هذه المصاعب كان الاميركيون ينظرون الى المهاجرين بشيء من الازدراء وينعتونهم بالاتراك. فيضطر بعضهم الى تغيير اسمه تجنباً لنعت «التركو» وتسهيلاً لنقله. فاذا يوسف الاسمر مثلاً يصبح جو براون ويحول ميكائيل وسلمان ولبم الخ... وكانوا يتعاونون فيما بينهم ويتجاورون ويشكلون مستعمرة قائمة برأسها. يقول نعيمه: «هناك في اسفل المنهاتان على مرمى حجر من وول ستريت كانت متاجرهم ومطاعمهم ومقاهيهم. وهناك كنت تسمع لهجات القرى اللبنانية مع لهجات بيروت وحمص وحماه والقدس الى جانب كركرة الزجيلة وطقطقة النرد ودوي المدقة في جرن الكبة. كان ذلك قبل الحرب الكونية الاولى اما بعد الحرب فقد انتشروا على جادة الافنيو الخامس وفي اهم شوارع المدينة».

وهكذا جاء اليسر بعد العسر بالنسبة للمهاجرين في جميع الاقطار الاميركية بفضل همتهم واخلاصهم ومثابرتهم على العمل: فـ«كشة» المهاجر في عهده الاول كانت منطلقاً له ولابنائه بعده الى ارفع المراكز في جميع

الحقول من الصناعة الى التجارة الى الزراعة الى الادارة الى الثقافة الى العلوم الى مجالس التشريع الى الوزارات والرئاسات فاكتسبت الجاليات اللبنانية ثقة الشعوب التي عاشت بينها وفرضت احترامها عليها حتى ان شهادات كبار المسؤولين في اللبنانيين المغتربين باتت تملأ مجلدات ضخمة[1].

اللبناني المهاجر ، على رغم تعلقه الشديد بالوطن الام ، وفيّ للبلد الذي تبناه لا يوفر جهداً في سبيل اعلاء شأنه. لقد تجاذبه حبان متعادلان بين وطنيه. حب غريزي وحب اكتسابي. وفي القطعة الرمزية التي كتبها امين نخلة الريحاني بالانكليزية وعنوانها «بلادي» تعبير صادق عن الصراع العاطفي الذي عاناه ويعانيه المغترب بين بلد احتضنه وبلد اراه النور :

«عاشق الطبيعة. شاعراً كان ام فيلسوفاً ام طفلاً لا يستطيع الا ان يستجيب لدعوة ازهار بلاده. فهي لا تنفك تناديه. وهذا يفسر اجتيازي المحيط مرات لزيارة موطني لبنان مع انني اموت مرات في السفر البحري قبل الوصول.

اميركا موطن بلادي الثاني. اجتني مطمئناً في احضان طبيعتها. حدائقها. التي ابتدعها الانسان تفوق الطبيعة جمالا. لكني انّى اجلت نظري بين ازهارها الفاتنة رأيت صورة ازهار بلادي المحببة الى امي. هذه ايضاً ازهار اجمل واصلب من تلك الازهار الرخصة التي تنشق عنها اخاديد صخور بلادي. وكلما رأيتها تخيلتني واكفاً عاري القدمين في هضاب لبنان اجمع باقة من الزهر ليوم الجمعة العظيمة اضعها تحت قدمي المصلوب.

ونبات المنحدر في موطني الثاني لا يقل جلالاً وبهاء عن الصنوبر في لبنان. ان له علي حق عرفان الجميل لاني عايشته فترة وافدت من تأثيره الشافي. لكن هذا لن يصرفني عن حبي الاول لاشجار طفولتي وملاعب طفولتي وايمان طفولتي.

ما هو ذلك الذي يتغلب على ارواحنا في هذه الدنيا قاهراً جميع ملكات المنطق ليحملنا بعطف باماكن واشياء معينة ندعوها الوطن او البلد الام؟ حقاً ان تاريخ بلادي هو تاريخ ارض بدون علم لكن رسالتها الروحية حركت مرة اعمق اعماق العالم. حقاً ان تقاليدها تقاليد امة بدون ملك وشعب بدون صوت وروح وهيكل. لكن روحها القديم ما زال حياً ويؤمل له ان يتغلب فيبعث. ان بلدي ارض الوعود. ان بلدي مهد الآلهة ولحدها.

(١) اطلق اسم لبنان على عدة مدن اميركية.

ولكن اذا كانت اصوات الانبياء عادت لا تدوي على جباله فان البلابل ما زالت تغرد في الاودية والوهاد . والورود تتفتح على اجفانه ، وارزه الشامخ من اعالي الجبال المكللة بالثلوج ما فتئ يلقي ظلاله على رماله الذهبية » .

في هذه الخطرات انعكاس صادق لنفسية المغترب . لا سيما ذاك الذي ترك بلاده فتياً . وهي تفسر الى حد كبير بروز « الحنين » كموضوع رئيسي في الأدب المهجري الاميركي ولا سيما الشعر في المرحلة الاولى وحتى في المراحل الاخيرة .

كان المغتربون الى العالم الجديد والاقطار النائية يعللون النفس بالعودة اغنياء الى بلادهم وقد تحررت . فما كانت الهجرة في نظرهم الا مرحلة اكرهوا عليها اكراهاً فعاشوا غرباء بانتظار اليوم الموعود . قال ابو ماضي :

لبنان لا تعتذ بنيك اذا هم ركبوا الى العلياء كل سفين
لم يهجروك بلالة لكنهم خلقوا لصيد اللؤلؤ المكنون
نسوا ولدتهم نسورًا حلقوا لا يقنعون من العلا بالدون
والنسر لا يرضى السجون وان تكن ذهباً فكيف محابس من طين

لذلك كان المغتربون يعيشون في اجواء خاصة بهم . والاشارات الى هذا الواقع كثيرة في مذكراتهم . يصف نعيمه احدى جلساته مع جبران وبعض الشعراء في كتابه « جبران خليل جبران » حول شلال في اميركا فيقول انهم غنوا جميعهم على صخرة اغاني لبنانية كالعتابا والميجانا والمعنى وشربوا عرقاً ممزوجاً برشاش الشلال وكأنهم في قلب لبنان .

اما قال سعيد تقي الدين في « غابة الكاڤور » : « تخيرت بعقلين بلدة استقط فيها رأسي . ولو أعطي لي ان اتقمص الف مرة لما نزلت الا بعقلين دار مولدي » .

وجبران نفسه رغم انه آمن بوطن عالمي للانسان في نظراته الفلسفية اجاب من سأله هل يرغب بالعودة الى وطنه قال : « نعم اريد ان ارجع الى موطن حداثتي الى مهبط الوحي الى ضفاف الوادي الذي منه تغذت روحي ... اود ان اعود كل يوم الى لبنان الى بشري . اتمنى العودة الى مار سركيس لاقطف زهر الصيام في الربيع . اتمنى الرجوع لأجلس على شرفة مار جرجس التي يزلق عنها الطير وارى الوادي المقدس تجري فيه مياه نهر قاديشا فتبين كخيط ابيض وانا اعلو عنها خمسماية قد . اتمنى العودة

الى لبنان الى بشري لارى ثانية موطن « خليل الكافر » و « مرتا البانية » و « يوحنا المجنون »[1] اتمنى العودة لاذهب الى مرجحين وراء جبال الارز : حيث تملك مزرعة : فاعيد ذكريات الصبا في احراجها واسمع حدو الاحالي :

يـــا بيكنا محمد سعيد وبـــارودنا يرعد رعيد

اتمنى العودة الى لبنان . الى الارز : لاقطف العطر في الخريف واشرب الحليب عند رعاة الماعز واسمع صوت منجيرة انتصب مائلاً تلك الهضاب » .

كان جبران في منزله : على حدّ ما يتمنّه نعيمه : يلبس جلابية شرقية ويتربع على طراحة امام موقد من الفحم يراقب « ركوة القهوة » تغلي على الجمار . اما قال لمي زيادة في احدى رسائله الحميمة اليها : « انا اكره ملابس رجال الغرب فيبي بدون وزن ولا قافية . واذا ما عدت الى الشرق فلن ارتدي الا الثياب الشرقية القديمة .

لكن جبران ورفاقه ان راموا الرجوع الى لبنان فانما لكي يؤدوا فيه دوراً رسولياً في رفع مستواه : لانه كان يعز عليهم ان يتبخر سراب احلامهم . وهذا ما يفسر : كما سنرى : حملاتهم على الجمود والتعصب وكل ما يؤخر بلادهم . وهذا يسوغ المشاريع المنوعة التي كانوا يتدارسونها في سبيل تحقيقها بعد الرجوع . ففي اول لقاء بين الريحاني وجبران ويوسف حويك في لندن سنة ١٩١٠ دار النقاش حول تأسيس دار للاوبرا في بيروت رسم جبران مخططها الاول وقد ظهرت فيه قبتان ترمزان الى المسيحية والاسلام متصافحا وقد وقع المخطط كل بدوره : وكتب الريحاني فوقه : « اول كلمة من قصيدة لم تنظم . لفظت في لندن في غرة تموز سنة ١٩١٠ » .

صحيح ان اللبناني سريع التكيف لانه ذو عقل مرن وارادة قوية . لكن هذا التكيف ما كان الا ظاهراً بالنسبة للاولين . حتى الثاهر كان يتلمس تقلص القشور الاصطناعية عندما يعودون الى نفوسهم ويعيشون في وحدتهم الحميمة . اما الذين قطعوا كل علاقة بموطنهم ساعة تركوه ولم يفكروا حتى بالعودة اليه مثل ادوار عطيه كما يقول في « عربي يروي سيرته » فقلة لا تذكر .

حتى الذين لم يعرفوا لبنان من الاجيال الجديدة يزهم حنين مجهول

(١) ابطال اقاصيصه .

الى الوطن الام . فكم من حفيد مغترب قبّل تراب لبنان حين وصل اليه . وكم من ولد نال غير جنسية ولم يعرف قط لبنان ثار ثورة الاحرار في سبيل الذود عن كيانه . يقول ابو ماضي مثلاً معبرًا عن رأيه ورأي الاجيال الحديثة في الخطر الصهيوني .

ما كفتنا مظالم الترك حتى ... زحفوا كالجراد او كالوباء
طردوا من ربوعهم فاراد وا ... طردنا من ربوعنا الحسناء

هذا الحنين الحار يفسر نضال المغتربين في سبيل تحرير بلادهم من النير العثماني ومن الانتداب ومن كل طامع بالسيادة عليه . وهذا النضال لم ينحصر في مقالات صحفية وقصائد بل تعداها الى تأسيس الجمعيات[1] وجمع الاموال وعقد المؤتمرات والقيام بالاتصالات الدولية على اوسع نطاق . وما انتفاضة المغتربين اليوم ضد الصهيونية الغادرة المغتصبة الا دليل حي على التعلق الاصيل بالوطن الام .

ثم اما اول بلد اميركي أمه اللبنانيون فهو الولايات المتحدة ثم البرازيل فالارجنتين . واول اديب هاجر (قبل حوالى قرن) هو خايل رستم والد الشاعر الساخر اسعد رستم . وكان ينظم الزجل وهو اول لون ادبي مارسه المغتربون وما زال بعضهم يمارسه حتى اليوم . اما اول قصيدة نظمت بالفصحى فهي لنقولا فيّاض صابونجي . وقد انشدها في وصف استقبال بارك يوم زار نيويورك اول مرة وقد نشرها في مجلته « النحلة » في لندن ١٨٧٢ .

وكان بدء الهجرة الى البرازيل سنة ١٨٧٤[2] وكانت حكومتها تشجع على الاقامة فيها لاستثمار اراضيها الشاسعة . بيد ان اول لبناني حلّ فيها يرجع تاريخه الى القرن الثامن قبل المسيح . فقد اصبح اليوم من الثابت لدى علماء الآثار بعد الاكتشافات التي بدأت سنة ١٨٧٢ واستمرت حتى اليوم ان الفينيقيين وصلوا منذ ذلك العهد الى العالم الجديد . وبين الكتابات التي عثر عليها في البرازيل ما يروي مغامرة مركب فينيقي انطلق مع عشرة قوارب من العتبة فقذفته العاصفة الى الشاطئ البرازيلي . وليس ما يؤكد ان هؤلاء المغامرين او ابناءهم عادوا الى بلادهم بدليل ان لا الجغرافي الفينيقي

(١) من الجمعيات التي وجبها المفكرون ودعتها « النهضة اللبنانية » في الولايات المتحدة والبرازيل « والاتحاد اللبناني » في كندا والارجنتين . اما الاندية فهي كل مدينة ودسكرة .

(٢) اما الهجرة الى اوستراليا فقد بدأت سنة ١٨٧٦ وبعدها الى الفيليبين وزيلندا الجديدة وافريقيا السوداء .

المعروف مارينوس التصوري ولا سواه من الجغرافيين او المؤرخين ذكر شيئاً من هذا القبيل . وقد اشار العلامة البرازيلي لرديفيكوسيون هاتج في تقرير الى اكاديمية التاريخ والجغرافية في البرازيل الى الاكتشافات الكثيرة في دول اميركا ولا سيما في منطقة الامازون من آثار فينيقية . وأكد ان اسم البرازيل نفسه قد يكون مركباً من كلمتين فينيقيتين : بر وازل . اي بلاد ازلية . ولعباس العقاد بحث مطول عنوانه : « اللبنانيون اكتشفوا اميركا قبل كولمبس » .

اما وقد عرضنا تاريخ الهجرة الى اميركا والبلدان البعيدة وما رافقه من مغامرات ومشقات والقينا نظرة على الاجواء اللبنانية هناك مستندين على مذكرات الادباء . ننتقل الآن الى درس ما خطته اقلامهم بادئين بالصحافة ثم بالشعر المهجري وخصائصه العامة لننتهي الى ابرز الكتّاب .

الصحافة

نزعة التفرد والاستقلال بالرأي من طبيعة اللبناني . فهي وراء تعدد المشاريع المتشابهة على الغالب التي يقوم بها اللبنانيون وهي مفتاح السر في كثرة الاندية والمعابد والجمعيات والصحف . ففيما كان للجالية الفرنسية في الارجنتين وهي جالية كبيرة بعددها ، جريدة واحدة تنطق باسمها في اصدار ضخم وتستمر اكثر من ثمانين سنة كان لجاليتنا فيها ما يزيد عن الخمسين صحيفة ومجلة محدودة النطاق تظهر ثم تغيب ويصدر غيرها . لذلك قلّت الصحف اللبنانية في المهاجر الاميركية التي كان لها « كالهدى » اثر يتجاوز محيطها .

اما اول جريدة عربية انشأها اللبنانيون في اميركا فهي « كوكب اميركا » للاخوين عربيلي . وقد ظهرت في نيويورك ١٨٨٨ ثم صدرت « الهدى » لنعوم مكرزل في فيلادلفيا بعد عشر سنوات[1] . اما في البرازيل فقد ظهرت اول صحيفة سنة ١٨٩٥ بما انقضت خمس سنوات حتى ظهرت اربع صحف غيرها . وهذه الصحف الخمس هي « النسيحاء » و « الرقيب » و « البرازيل »

(١) كانت اسبوعية ثم انتقلت الى نيويورك سنة ١٩٠٢ واصبحت يومية . تولاها نعوم حتى ١٩٣٢ فخلفه اخوه سلوم حتى سنة ١٩٥٢ ثم ابنه ماري وكان نعوم قد تمرس على الفن الصحفي في مصر واشترك كرئيس لجمعية النجدة عقب العدوان في فرساي للمطالبة باستقلال لبنان . واصدر ماري مكرزل مجلة بالانكليزية مع « الهدى » (الجريدة اللبنانية) وكان سلوم مكرزل اول من انشأ التيبوغرب العربي .

و« المناظر » و« العواصف » . وظهرت في الارجنتين في سنة ١٨٩٨ « الساعقة » التي تحولت فيما بعد الى « صدى الجنوب » .

لم تكن مهمة الصحفي اللبناني هناك يسيرة في المرحلة الاولى ولا في مصر كما رأينا . فقد كان صاحب الجريدة مدير ادارتها ومحررها ومنضد احرفها وطابعها واحياناً موزعها . وقد سجل عدد الصحف والمجلات رقماً قياسياً في اواخر العشرينات (منها ما ظهر مدة ثم احتجب) . منها، حسب احصاءات ذكرها الدكتور فيليب حتي، ١٠٢ في الشمالية: بينها ٧١ جريدة (٧٩ في الولايات المتحدة: ١٧ في المكسيك و ٦ في كندا) و ١٦٦ في الجنوبية، بينها ١٣٤ جريدة (٩٥ في البرازيل : ٥٨ في الارجنتين . ٨ في الشيلي : ٣ في كوبا وواحدة في الاوروغواي) .

اهم هذه الصحف في الولايات المتحدة بعد « الهدى » : « النسير » للشاعر ايليا ابو ماضي و« مرآة الغرب » لنجيب دياب . و« الخارس » لأمين غريب و « الايام » ليوسف تهان المعلوف و « الاصلاح » (ويديرها اليوم التونسي شوريز الذي يوقع ابو فيليب) . وفي المكسيك « الشرق » ليوسف كرم وعقل بشعلاني : « التفكر الحر والمسامير » لسليم نصار و « الرفيق » لرفيق محبوب الشرتوني ؛ و « صدى المكسيك » لبطرس الخوري طويلا . وفي البرازيل عدا التي ذكرنا « العدل » لشكري انطون و « البريد » ليوسف نسيب ضاهر و « الحمراء » لالياس طعمه و « بريد الشرق » لنخله الخوري (شقيق الاخطل الصغير) و « الاصمعي » ثم « ابو الهول » لشكري الخوري و « الجريدة » للدكتور خليل سعاده و « الاحرار » لنجيب بشعلاني و« الدليل » لتوفيق ضاعون و « الافكار » لسعيد ابي جمره و « فتى لبنان » لرشيد عطيه و « الاندلس الجديدة » لشكرالله الجر .

اما في الارجنتين فأهم الصحف التي ظهرت « الصبح » لشكري الخوري (مؤسس الاصمعي وابو الهول في البرازيل) و « السلام » لوديع شمعون و « النسر » لسمعان منصور جاماتي و « الجالية » لجورج مسرة و « الارجنتين » لسليم ابو اسماعيل و « الاتحاد اللبناني » (لسان حال النادي الذي يحمل اسمه) و « الفترة » لمحمود محمد سلوم و « الحياة » لجورج عساف و« لبنان » ليوسف خوري مخايل ابو زيدان و « الاستقلال » لأمين ارسلان و « المنبر » لرشيد زين و « العلم العربي » لعبد اللطيف الخشن و « صدى الشرق » لنجيب بعقليني و « المهجر » ليوسف نجم الرشماني . وفي

التشيلي « المرشد » لبولس الخوري و « الوطن الاول » لداود مجاعص و « الاعتدال » لتوفيق ضعون و « اهادي » لانطون جمال .

لقد قال شكري الخوري (صاحب « ابو الهول » ومؤلف التحفة العامية في قصة فينيانوس وطيلة العمر في حديث ابو يوسف نمر ١٨٧٢—١٩٣٧) من قبيل النكتة : « لو كان للقمر طريق لرأيت لبنانياً يحمل كشته ويصعد اليه ويخلفه لبناني آخر شك دواته في زناره لينشئ اول جريدة في كوكب العشاق » ! اما وقد انفتحت اليوم طريق القمر وتنوعت وسائل الاعلام فقد لا يكون من المستغرب ان يكون لبنانياً اول من ينشئ محطة اعلامية في الكواكب .

تضاءلت عدد الصحف العربية على مرور الزمان فلم يبق اليوم الا القليل وذلك لاسباب مختلفة : منها انفال الجيل المولود في الوطن الثاني على اللغة المحلية بحكم الضرورة المعيشية ومنها انقطاع مد الهجرة بعد الحربين في معظم الدول وغياب المدارس العربية (باستثناء بعض دراسات جامعية كما في ساوباولو) ومنها حظر بعض الدول صدور الصحف بغير لغتها كما فعلت البرازيل في الحرب العالمية الثانية فتحوّل بعضها الى لغات اجنبية : « الارز » صار بالاسبانية El Cedro (في فنزويلا) و « الوطن » Patria في الاورغواي . و « لبنان » Libano و « لا يزول » و « الامير » تحتفظان اسميهما العربي وتصدران بالاسبانية ، كما صار باليورتوغالية « فتى لبنان » Brasil-Portugal و « الشرق » O Oriente في البرازيل . وثمة صحف صارت تصدر بلغتين كـ « المراحل » لزيانا دعبول فاخوري (عربي برتغالي) و « الغربال » لسليم عبود (عربي اسباني) في المكسيك ، او بلغات ثلاث كمجلة الشرق الاوسط لجوزيف لحود في كندا (عربي ، فرنسي ، انكليزي) وصدرت عدة صحف جديدة بلغات اجنبية نذكر منها : Cercano Oriente, Tozohas Selectiones, The Voice, The Heritage, The Caravan, Le Moraliste فضلاً عن الصحف المختصة بالامور الدينية The Word او بالرياضة وصراع الثيران مثل Redondel او بالتصوير مثل Pictures وبالسينما مثل مجلة هوليود .

الا ان اللبنانيين لم يقتصروا على الكتابة في الصحافة اللبنانية بل ان كثيرين منهم اسهموا في الصحف المحلية الكبرى . نذكر مثلاً نجيب الجميل في « النيويورك ديلي نيوز » واميليو خزامي في « الديارين » وميك حبيب « في نيويورك تايمز » وداود نصر في « اوكروزيرو » وجيلين توماس في « وكالة

الصحف الدولية . . وثمة اذاعات خاصة يتولاها المغتربون بعدة لغات في معظم القارات على سبيل الدعوة للبنان خاصة والقضايا العربية عامة[1] .

لقد اسهمت المرأة اسهاماً بارزاً في الصحافة ونذكر من اللبنانيات ، عدا مريانا دعبول فاخوري . عفيفه كرم التي كتبت في « الهدى » واصدرت سنة ١٩١٢ اول مجلة عربية نسائية في اميركا « العالم الجديد النسائي » (كما اصدرت هند نوفل اول مجلة نسائية في مصر سنة ١٨٩٢ « الفتاة ») ولبيبه هاشم التي أنشأت « الشرق والغرب » ثم « فتاة الشرق » وماري يني عطاالله مجلة « ميرفا » وكنتاهما في الشبلي . والجبيل: عون شليطا وليلى نقاش وامينه نصر وقد اسهمن في عدة صحف .

ثمة قاسمان مشتركان بين الصحافة اللبنانية في ديار الاغتراب على اختلاف اللغات والمناطق والاجيال هما :

ـ الاسهام الفعال في اثارة الوعي القومي وفي تنظيم العمل الجماعي للدفاع عن القضايا الوطنية منذ العهد العثماني حتى ايامنا هذه مروراً بالانتداب ومرحلة بناء الاستقلال والخطر الاسرائيلي على لبنان .

ـ تسهيل مجال انطلاق الادباء والمفكرين ونشر افكارهم بين الجوالي فضلاً عن الاتصال بالمؤسسات الوطنية المقيمة والاوساط الثقافية في لبنان والخارج.

بيد ان الصحف اللبنانية في اميركا كانت تستهدف غايات اخرى منها اذاعة اخبار الجالية الناطقة باسمها وجمع شملها وابراز نشاطاتها ومآثرها والدعوة الى الاتحاد بين الجاليات واثارة الحمية للقضايا الوطنية كالدعوة الى مساعدة لبنان بعد ان نكب بالجوع في الحرب الاولى والحث على التطوع لمساعدة الحلفاء في الحربين وتوضيح القضية الفلسطينية بالنسبة للغرب .

جاء في العدد الاول من « العروة الوثقى » التي اسسها جبران قطان ويوسف معوض بالارجنتين :

هدفها : « تدوين الاعمال المحمودة التي اتاها كرام الجالية في سبيل المصلحة القومية المشتركة . وما المواضيع الاخرى المطروحة نثراً ونظماً الا نقط ترمي الى الخدمة الوطنية وتذكارات تاريخية تعيد الى اذهان الابناء آثار

(١) بعد ان توقفت « الرسالة » لفريد شيفل لم يعد في استراليا صحف عربية ولا انكليزية خاصة باللبنانيين الا ان بعض المغتربين مثل رودلف ابو خاطر يحررون في الصحف المحلية . اما في افريقيا السوداء فقد اسس نجيب مكرزل في مدينة دكار مجلة اسبوعية بالفرنسية « افريقيا التجارية » عاشت من ١٩٣١ الى ١٩٣٥ .

الاجداد كي تثير فيهم الحماس وتدفعهم الى الاقتداء بهم ووسائل لايجاد التعارف بين ابناء الوطن وعواطف تجلى فيها التحبب بالوطن والتحريض على تعزيزه ونقض كل حواجز وتقليدات تقف بوجه المحبة الوطنية ».

وجاء في العدد الاول من جريدة « السائح » لصاحبها يوسف مسلم التي صدرت ١٩١٠ : « من يحب ان يكرم من السائح عليه ان يتجنب كل ما يغض من كرامة الجالية ويجحف بحقوقها ويشوه سيرتها بين بقية الجوالي واهل المهجر وان يسعى الى خيرها غير شامخ بانفه ولا متكبر على مواطنيه ».

ولما اصدر فيليب جرجي بدران جريدته الاسبوعية « جوفر » في مكسيكو اثناء الحرب الاولى كتب في عددها الاول : « في الاسبوع المنصرم كانت مصالح اللبنانيين والسوريين مهددة بضروب الاخطار من سياسة الاحلاف الذين كانوا يعدوننا اتراكاً حلفاء الدول المحاربة لهم وكدنا نذهب ضحايا هذا الظن ونكون في جملة التجار الذين قطعت عليهم طرق التجارة وسدت في وجوههم الابواب . منذ عشرة ايام وصلت اوامر دول الاحلاف مصحوبة بتشديد عنيف من الرئيس ولسون الى جميع تجارها ومصارفها في المكسيك بتقطع علاقاتهم التجارية مع اعدائهم . ولما كنا معدودين تركيين نظراً لمظاهر بعضنا كاد يختلط الحابل بالنابل ويؤخذ البريء بجريرة الجاني » .

ولقد اسهمت هذه الجريدة وسائر الجرائد المهجرية بانقاذ الموقف عن طريق التوضيح بان لبنان هو غير تركيا . ثم تركزت حملة باللغة الاسبانية على هذا الموضوع .

لئن ادت الصحافة المهجرية الاميركية رسالة وطنية مهمة فقد أدت كذلك رسالة ادبية لا تقل اهمية لا من حيث اسلوبها وهو ركيك بسيط في اكثر هذه الصحف على عكس الصحف اللبنانية في مصر بل لان الصحف الادبية منها كانت المنبر الاول للادب واشهر الادباء برزوا اول الامر عن طريقها . فجبران مثلاً كتب اول مقال له في « المهاجر » للاديب المؤرخ امين غريب بعد ان تعهد له هذا بتصحيح الاملاء وتقويم الجمل (٥ آذار سنة ١٩٠٤) وكان اذا عجز عن التعبير صور ما يرمز اليه تصويراً وترك لصاحب الجريدة مهمة التصحيح . وكذلك كان اول مقال نشره بالانكليزية سنة ١٩١٨ في مجلة « الفنون السبعة » وكان شريكاً فيها . وكانت مجلتا « الفنون » و « السائح » منبري انطلاق ادباء الرابطة القلمية كما كانت مجلة « العصبة الاندلسية » لسان حال كتاب هذه العصبة في اميركا الجنوبية . الا ان الكتاب المهجريين لم يكتفوا طبعاً بمنبر الصحف بل نشروا دواوينهم وكتبهم في اميركا وفي لبنان وفي مصر .

الشعر المهجري

قلّ بين الادباء اللبنانيين في الأميركتين من لم ينظم الشعر وكثير منهم من اكتفى به دون النثر . وقد غلب على هذا الشعر ، في نسب مختلفة ، طابع خاص جعله مدرسة قائمة برأسها . فما هو هذا الطابع ؟

يمتاز الشعر المهجري بانه ، في معظمه ، تعبير حي صادق عن تجربات شخصية . انه نوع من التنفس الطبيعي لكائنات مستوحدة في محيط غريب لم تنسجم مع اجوائه فظلت موزعة بين حياة جديدة ما انفتها وحياة ماضية لم تنسها . ومن هنا كان الحنين في جميع وجوهه من ابرز المواضيع واكثرها شيوعاً في شعر المغتربين الى الاميركتين .

هذا الحنين الذي يبدأ بتسقط الرأس الخنود لا يلبث ان يتعداه الى الوطن بطبيعته واهله وطريقة العيش فيه ثم الى المطلقات التي صبا اليها الرومنطيقيون ازاء صدمة الواقع ونسبيات الوجود . وهكذا يتطور الحنين من عاطفي الى ميتافيزيقي عند البعض ويستمر عاطفياً صرفاً عند الآخرين .

يروي امين الريحاني في « قلب لبنان » ان رشيد ايوب رأى ذات يوم الثلج يتراكم في اسواق نيويورك وسمع زقزقة طير شريد يحوم حول المدخنة على سطح من سطوحها ليصطلي فنظم قصيدته المعروفة :

يا ثلج قد هيجت اشجاني ذكرتني اهلي بلبناني

« في ذلك اليوم ، اطل الشاعر الدرويش ولا يزال الجسم منه مكبلاً بالكبول الاميركية يروح ويجيء في اسواق نيويورك ومكاتبها كالماشي في نومه ، تأكل نعاله وحشة التمدن وتخترق الاضلع منه الى النسيم » .

حتى لو لم ير الثلج لكان رأى شيئاً يذكره بلبنانه كما ذكرت خصلة الشعر الياس فرحات بخيبته في الوطن فأنشد :

خصلة الشعر التي اعطيتنيها عندما البين دعانا بالنفير
لم ازل اتلو سطور الحب فيها وسأتلوها الى اليوم الاخير

في هاتين القصيدتين كما في اكثر القصائد المنظومة من وحي الحنين العاطفي عفوية مؤثرة في بساطتها وبراعتها حتى ولو لم تكن من مستوى رفيع . وهي ان دلّت على شيء فانما تدل على نفسية الطائر المغرد خارج سربه في توقه للعودة اليه . وهذا ما يشير اليه شفيق المعلوف في قوله :

هاك ملهى الصبا فيا قلب لملم ذكرياتي على ضفاف الوادي

او رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) :

لبنان هل في الارض غيرك مربع حلا لي وهل في جنة الخلد مرتع

او ايليا ابو ماضي :

وطني ستبقى الارض عندي كلها حتى اعود اليه من ارض اليه

الا ان هذا الشاعر يخشى الا يجد « فردوسه » كما كان ويأبى ان تصعقه الخيبة فيتقلص السراب :

لا غابتي اليوم كعهدي بها ولا التي احببتها فيها
قد بدل الانسان اطوارها واغتصب الطير مأويها

وربما كان هذا الشعور هو ما دفعه الى اطلاق وطنه من إبعاده المادية فعاد لا « طوداً ولا بلاداً » ، لكن سماء .

ويتخذ هذا الحنين طابعاً مأساوياً كلما تقدمت السن بالشاعر فاذا الاسى بكل ما يرمز اليه هو محور الدائرة .

يقول يوسف الخاخوري :

تعالي نجمع بقايا الشباب فقد لوحت شمسنا للغروب
تكاد سفينتنا في الضباب تضل عن الشط عند المغيب

وميشال المعلوف :

سيأتي زمن به نتلع بزورقنا ماخرين العباب
الى اربع جوها أهل باطياف اجلامنا في الغياب

الا ان مخايل نعيمه ، وقد فلسف الحنين على طريقة ابن سينا والحلولية الهندية ، يرنو الى الغروب كمرحلة انعتاق الروح من الجسد وزوال رغائبها الفانية :

غير اني لا بد ابلغ يوماً فيه ابني حراً عديم التمني

وكذلك فوزي المعلوف اذ يقول في الشاعر :

هو بالرغم عنه من عالم الارض وان كان تربا بشكل ابناء جنسه

وهذه الطمأنينة التي يسعى نعيمه ومخلوف اليها في غير هذا العالم يصبو اليه جبران في قلب الطبيعة البدائية التي يرمز اليه الغاب والناي في «المواكب».

وهكذا يجسد كل من هؤلاء الشعراء على طريقته الخاصة فكرة الفردوس المفقود التي شغلت الرومنطيقيين وهم غرباء في ديارهم غربة الملاك الساقط الذي يتذكر السماء على حد تعبير لامارتين. ومن هذا النوع كانت مثلاً غربة جبران التي يصفها بقوله: «انا غريب وفي الغربة وحدة قاسية ووحشة موجعة غير انها تجعلني افكر ابداً بوطن سحري لا اعرفه».

وهكذا سيطر الحنين على المهجريين بدون استثناء. فالناجحون لم تنسهم النعمة وطنهم والفاشلون زاد البؤس فلتتهم الى حضن الام. الى البيت المهجور. الى الكرم الاخضر. الى ملعب الطفولة. الى الموقد والعرزال.

وهذا حس الاغتراب الذي يتجاوز مجرد الحنين الى وطن معين ثمة عناصر رومنطيقية اخرى تتجلى في الشعر المهجري: منها المثل الذي يعززه مشهد كآبة الخريف والعجز عن تحقيق الاماني الذي يورث نوعاً من شعور اليأس نتيجة الصدام الذي يشهده الشاعر بين ما هو كائن فعلاً وما يجب ان يكون برحي مثاليته. فيدرك ان السعادة وهم ومع هذا يتشبث بذلك الوهم كما الغريق بالحطام. ومنها التعلق بالطبيعة: رمز الفناء الذي يناقض فساد البشر. ومنها النزعة الى تعرية الذات وكشف بواطنها عن طريق الاعتراف والنجوى ومنها قدسية العاطفة التي يرفعها الخيال او الحلم الى ما وراء الواقع في مواكب النغم المجنح. ومنها الحس الوطني المرهف المتجلي في ردات فعل تبلغ احياناً حد العنف الشعوري. لذلك نرى ان اكثر الشعر المهجري من نوع الاناشيد يتجلى فيها الايقاع والمعنى الجديد على حساب البلاغة والتأنق وخصوصاً في اميركة الشمالية. وهذا ما حدا ببعض النقاد على وصفه بالركاكة فأثار ثائرة مخايل نعيمه في «غربال» كما سنرى وحمل النقادة المصري على الدفاع عنه بقوله:

«اما استخدامهم للالفاظ المألوفة فلا ارى فيه موضع ضعف بل قوة: لان الالفاظ المألوفة (ولا اقول المبتذلة) هي التي تستطيع في الغالب ان تستنفد احساس الشاعر. كما انها اقدر من الالفاظ المهجورة على دفع مشاعرنا الى التداعي. وقد كثر استعمالنا لها في الحياة فتحددت معانيها وتلونت في نفوسنا فحملت شحنة عاطفية وهذه صفات من اول فضائل

الاسلوب الشعري ، بل اسلوب الادب بوجه عام . (الدكتور مندور : « في الميزان ») .

وقال جبران : « لكم منها الرثاء والمديح والفخر والتهنئة ولي منها ما يتكبر عن رثاء من مات وهو في الرحم ويأبى مديح من يستوجب الاستهزاء . لكم منها التصنيع دون التركيك والبليغ دون المبتذل ولي منها ما يتسنمه المستوحش وكله فصيح مما يغص به الشوحج وكله بليغ » .

وقال شفيق المعلوف : « افهم بالتجديد في شعرنا العربي ان نرأب ثلمة لا ان نثغر ثلمات وان نخرج به من اضاكاة الى الابتكار مستحدثين له المعاني التي نريدها نحن لا التي تجرنا اليها القافية دون ان نخرج على روح اللغة وروابطها الصحيحة او نتنزل عن تخيلاتها الشرقية الموسومة بطابع خاص يميزها عن تخيلات شعراء الغرب » .

وشعراء المهجر وان جمع اخيرين بينهم من حيث المعنى . فانهم من حيث المبنى انتسبوا الى مدرستين مختلفتين «الرابطة القلمية» و«العصبة الاندلسية» .

في العشرين من نيسان سنة ١٩٢٠ اجتمع بعض الادباء في نيويورك وتداولوا الرأي في الطرق العملية لبث روح جديدة في الادب العربي تنشله « من وهدة الخمول والتقليد الى حيث يصبح قوة فعالة في حياة الامة » . وقرّ رأيهم على تأسيس الرابطة . وفي اجتماع آخر نشأت الرابطة القلمية وغايتها نشر مؤلفات عمادها ميراثهم من كتاب العربية المستحقين وترجمة المؤلفات المختارة من الآداب الاجنبية ومنح جوائز في الشعر والنثر والترجمة . اما الأعضاء المؤسسون فكانوا : جبران خليل جبران ، نخائيل نعيمه ، رشيد ايوب ، وليم كسنفليس ، ايليا ابو ماضي ونسيب عريضه ونديم حداد (والاخيران من حمص) . وكانت « الرابطة القلمية » مركز انطلاق الادب المهجري كردة فعل على ادب الجناس والطباق والتسجيع والتاريخ الذي كان شائعاً في العربية . فأحدث ثورة فعلية . وقد قال جبران عميد الرابطة : « ان الادب العربي لن يواكب الحياة الا اذا تحرر من التقديم . فشاعرنا ينظم ولكن بافكار من تقدموه ، وكاتبنا يستعيد تشابيه ابن البادية . واذا نظم الشاعر فشعر مناسبات ، واذا كتب الكاتب فمن اشياء لا تحسها روحه ولا يراودها خياله » . وكأنه بذلك يحدد منهج المدرسة الجديدة . الا ان قول جبران هذا لا ينطبق على الادب في لبنان ، حيث قامت النهضة واستمرت واحتل الشعر خصوصاً بعد انتشار الروائع الغربية بفضل الجامعتين الاميركية واليسوعية ، ولا على الكتّاب المجددين في مصر .

اما « العصبة الاندلسية » فقد جمعت ادباء امريكة الجنوبية سنة ١٩٣٣ بعد ان كانت قد تواريت « الرابطة القلمية » . وكان من ابرز اعضائها : ميشال المعلوف ، اول رئيس لها . وشفيق المعلوف ، رئيسا بعده . وحبيب مسعود واسكندر كرباج ويوسف البعيني وعقل الجر وشكرالله الجر ورشيد سليم الخوري والياس فرحات وقيصر الخوري وتوفيق قربان ونعمة قازان وتوفيق ضعون وسعيد اليازجي وجورج حسون ويوسف غانم (وسلمى صائغ ورياض المعلوف لفترة قصيرة) . وكانت اهدافها : تعزيز الادب العربي — تآخي الادباء — رفع مستوى العقلية العربية — مكافحة التعصب — نقض التقاليد التي تنافي روح العصر . اما اسمها فهو على حد قول حبيب مسعود : قد اختير « تيمناً بالتراث الغالي الذي تركه العرب في الاندلس واشارة الى الابتعاد عن التطرف الذي اتسمت به الرابطة القلمية في الشمال » . وقد عنيت هذه العصبة بمعالجة مشكلة اللغة لما احست انها بحاجة الى تشذيب في نطاق عبقريتها خوفاً من طغيان اللهجات العامية عليها . وقد صدرت سنة ١٩٣٥ مجلة شهرية بادارة حبيب مسعود تنطق باسمها .

اذا كانت الخصائص العامة التي ذكرنا تنطبق على الشعر المهجري بوجه عام فان لبعض الكتّاب والشعراء خصائص انفردوا بها . لذلك سنتناول ابرزهم بكلمات مستقلة . ونبدأ باكبرهم سناً امين الريحاني الذي لم ينتسب لرابطة .

امين الريحاني (١٨٧٦–١٩٤٠)

سافر فتياً الى نيويورك وساعد عمه في عمله التجاري . كان اذا اتعبته الحسابات والمراسلات اتجه الى النهر يصيد السراطين ويبتاع بثمنها بعض الكتب الانكليزية المبسطة . وكان ينام في قبو مظلم تحت مستوى شارع واشنطن تغمره المياه في الشتاء فيتشلها بالدلو الى ان تنهك قواه فينام لاعناً « اولئك المتكئين على وسائد الريش المتسربلين بالخز والحرير » . مارس التمثيل فلم ينجح . واعتلت صحته فعاد الى لبنان يكمل دراسة العربية فترجم « لزوميات » المعري شعراً الى الانكليزية وعاد الى نيويورك فنشرها ونشر نبذة كتبها بالعربية عن تاريخ الثورة الفرنسية . ولما لم تلق باكورته النجاح التي توقع عزم على ان يكسر مزراب العين فيشتهر بسرعة . فكتب « الخالقة الثلاثية في المملكة الحيوانية بين الحصان والبغل والحمار » تهجم فيها على

النظريات اللاهوتية وحرف اقوال المسيح . فأثار عليه النقمة العامة فانقلع عن الطريق السهل وانصرف الى البحث الجدي فكتب خواطر في المجتمع والانسان والكون نشرها فيما بعد في اجزاء متتالية من « الريحانيات » (بعضها صدر بعد موته) ظهر عليها تأثير فولتير وروسو والرومنطقيين : « ان في ورقة من اوراق التوت سراً لا يكشفه اللاهوت : الى الوادي اذن هناك بين اشجار البطم والزعرور وتحت ادواح الصنوبر والسنديان اشيد هيكل الايمان . اراني هناك في بيتي : في بيت الطبيعة : بل في بيت الله » . وضمن ريحانياته بعض شعره المنثور وكان اول من نشر هذا اللون في العربية متأثراً خطى الاميركي « والت ويتمن » .

بعد رحلة طويلة الى اوروبة نشر الريحاني بالانكليزية عام ١٩١١ « كتاب خالد » وقد وضع رسومه جبران . فكان له صدى بعيد في الصحافة الاميركية . كتبت عنه بوسطن هرالد : « يفضل كتاب خالد تبوأ العنصر الشرقي مركزه اللائق في الادب الانكليزي » : ونيويورك بوست : « لامين الريحاني هبة سامية من جمال اللغة » .

وكتاب خالد درس اجتماعي قصصي فيه تصوير لنفسية المهاجر اللبناني وتحليل لاخلاقه وعاداته في الغرب . يقع في ثلاثة اقسام : السوق ــ الهيكل ــ كل مكان . بدأ كلاً منها بانشودة ترمز الى المغزى العام . وبطل القصة « خالد » شاب بعلبكي هاجر الى نيويورك مع صديقه « شكيب » وراحا يبيعان « بالكشة » . اتيح له ان يدرس المدنية الغربية ولا سيما الاميركية فلما عاد الى لبنان متحرراً بدأ ينشر آراءه في الدين والمجتمع والسياسة . انه يمثل المهاجر العصامي الذي ينظر الى المدنية الشرقية بعين الغربي فيتمنى لو تنتشر العلوم والصناعة الحديثة في بلاده والى المدنية الغربية بعين الشرقي فيكرز بالروحانيات . وهو مسيحي المولد شرقي الصبغة اسلامي اللهجة يسرد آراء المؤلف ومبادئه في التساهل الديني والتحرر الفكري وفي التوفيق بين الذهنيتين الغربية والشرقية . انها نظريات الريحاني التي عبّر عن اكثرها في ريحانياته تنسجم هنا في وحدة متجانسة فتظهر رأيه في المدنية المثلى وهي مدنية متزنة حرة توازي فيها العقل والروح وفي الفرد المثالي الذي تحرر من العصبية والجهل والتقليد وصهر في ذاتيته صفات العالم الغربي والمتصوف الشرقي .

بعد اربعة سنوات ظهرت « زنبقة الغور » بالعربية وهي قصة اجتماعية

اخلاقية جرت وقائعها في فلسطين . ولما اندلعت الحرب الكونية الاولى تعاقد الريحاني مع مجلتي « بوكمان » و « فورم » لمراسلتهما في ميادين القتال . ولكن عندما اعلنت اميركة الحرب خشي انقطاع طريق الرجوع فعاد الى نيويورك وقام بجولة في الولايات المتحدة الاميركية يحث مغتربينا على التطوع في صفوف الحلفاء وعلى مساعدة الجياع في الوطن . وقد شاركه جبران في هذه الحملة . الا ان هذا النشاط العملي الكثيف لم يكن ليمنع الريحاني عن التأليف . فنشر قصة « جبران » (بالعربية والانكليزية) ومسرحيتا تركيا الفاتحة في لجة التعصب والجهالة والطغيان . ثم اصدر بالانكليزية بحثاً عن تحدر البولشفية على اثر سيطرة لينين على الحكم وقد ردّ فكرتها الى الشرق . الى القرامطة والحشاشين . ثم نشر مجموعة خواطر « جادة الرؤيا » بالانكليزية حول اضطراب الحياة الاجتماعية والروحية في عالم اليوم بسبب التكالب في سبيل المادة ؛ وديواناً شعرياً « انشودة صوفية » جسّد فيها شوق الغريب الى وطنه وتوقه الى اللانهاية قال فيها نعيمة في « الغربال » : « الريحاني شاعر ينطق بتموجات فكره ونبضات قلبه فحيثما تسمع لقلبه نبضة تجد في شعره جمالا وتسمع له رنة ... لقد اصبح اليوم وكأنه ليس منا فهو يكتب لسوانا بلغة غريبة عنا . وما يكتبه بالانكليزية اجمل وافصح وابلغ من كل ما كتبه بالعربية » . لكن الامين ما لبث ان عاد الى لغة الضاد واشتق له فيها نهجا خاصاً بدأ يظهر في كتابه « ملوك العرب » الذي جال فيه رحلته الى الجزيرة العربية واتصاله برؤسائها وشعبها في سبيل جمع الشمل وتوحيد الكلمة ، مبشراً بالعلم والتمدن — كما كتب في المقدمة — لا بالوحدة الغربية وحدود ابن عباس كما يفهمونها بالحجاز . لا والله ما جئت لانصر جهلاً مسلحاً واعزز تعصباً يفتخر بوحشيته . تبغي الحرية والاستقلال نعم ولكننا نبغي المدارس ايضاً والطباعة والمستشفيات ونبغي النظافة في المعيشة وفي اللبس وفي البيوت وفي المدن » . وقد حاول الامين ان يشرك القارئ برحلته فجعل اخباره صوراً حية كما في وصفه للامام يحي : « دخلنا فاذا نحن امام رجل ربع القامة ، صغير الرجل واليد ، اسمر اللون عالي الجبين مستدير الوجه قائمه . له فم كفم الطفل صغير بارز الا ان في مرونه وهو يتكلم اشارة تقربه طوراً منك وتارة تبعده . وفي عينيه السوداوين القريبتين من انف قصير عريض نور يضيء وشرارة في بعض الاحايين رواعة وله لحية سوداء قصيرة مستديرة تخللها خيوط من الشيب ويلبس قباء من القطن مخططاً فوق جبة ذات اردان من نسج اليمن ولعمامته البيضاء الكبيرة ذؤابة تكاد تصل الى اذنه . دخلنا

ذا هو جالس على فراش اسود وثير . تحته فراش آخر وبجادة عجمية وعن جنبيه الوسائد يتكئ عليها وامامه زجاجة من الماء وروزمة من اللفات وخادم ينتخب الفطري من غصونها فيقدمها له » .

ولم يقتصر على وصف ملوك العرب وحدهم كما يتبادر لاول وهلة . بل تناول الشعب كافة على اختلاف طبقاته من قبائل رحل وبدية وامراء ورعاة وخدم وطهاة واعطى نماذج عدة عنهم مبيناً مقدار وعيهم لامور الحياة وحقائق الكون دارساً احوال معيشتهم نافذاً الى اعماق وغائبهم : « كنت في كل قطر من الاقطار العربية افتح الأذن دائماً لجميع الناس فاسمع الشريف والبدوي والجمال والجندي والتاجر والسياسي وادون احاديثهم » .

لم يستند « ملوك العرب » كل مادة رحلة الامين بل رحلاته ، فكتب بالعربية « تاريخ نجد الحديث » و « قلب العراق » و « فيصل الاول » و « المغرب الاقصى » ، وبالانكليزية « ابن سعود وشعبه وبلاده » ، و « بلاد اليمن » و « حول شواطئ الجزيرة العربية » و « مصير فلسطين » (نشر بعد موته) وقد تنبأ فيه بتطور القضية الفلسطينية والمطامع الصهيونية[1] . وقد القى عدة محاضرات في اميركة حول هذا الموضوع واخطاره .

لم يكن للريحاني ، رغم تلقيه بفيلسوف الشركة مذهب فلسفي متماسك التركيب يتطرق حل مشكلة كونية او انسانية معينة على طريقة جديدة ، انما كانت له نظرات فلسفية على غرار حكماء الشرق القدامى وبعض رفاقه كجبران ونعيمه ، مبعثرة في آثاره ولا سيما « الريحانيات » يكوّن مجموعها نواة تجمع انتقائي توفيقي فيه من الرواقية شيء ومن علمية رينان شيء ومن الحلولية الطبيعية اشياء في اطار اختباراته الخاصة بين خلال الاجواء الاميركية والاوروبية والشرقية التي عاش فيها . والحلولية الطبيعية التي دان بها لا تختلف كثيراً عن تلك التي بشر بها نعيمه وهي تقول بان الكون هو الحقيقة وان الله ليس الا قوة تلازم الطبيعة وتحركها بل هو روح الكون ينمو دواماً وبنموه تنشأ الكائنات : « اني ارى في كل ما حولي من الطبيعة شيئاً من الجوهر الالهي » . اما الانسان في نظره فليس آدمياً ساقطاً بل كائناً بدائياً يحسنه المجتمع المتطور بفضل التقدم فيتجاوز ذاته باستمرار حتى يبلغ المستوى الاعلى . والريحاني الى هذا مفكر سياسي ملتزم دعا

(١) لم نذكر الا الكتب التي لها علاقة باغترابه ، تلك الحملة رائعته « قلب لبنان » وسائر الكتب في النقد والاجتماع التي ظهرت في لبنان من وحي الاقامة فيه .

الى القومية المتحررة من التعصب والقائمة على المصلحة المشتركة والمنطق والحرية والعدالة. انشاؤه نزق فكه سلس ، بعيد عن التعقيد والغرابة. وهو يلائم كل الملاءمة تنقل الكاتب على غير تمهيد من الوصف الى الحوار الى النقد ، فاذا لكل لون من الحديث لون من اللفظ. الجزل للجزل والغريب للغريب والخفيف للخفيف. وما اكثر التوريات والكنايات التي تأتيه عفو الخاطر والريحاني غني بمفردات اللغة ينزل الكلمة منزلتها على غير تثاقل. لقد تتلمذ في اسلوبه على الجاحظ والشدياق وفولتير من حيث الظرف والسخرية والدعابة حتى في اخطر المواضيع. فهو يعبر عادة عن افكاره بأمثلة حسية ملموسة كقوله : « رب اوهام تعيش كبعض الاطيار تعيش بيوضها في عش الحقائق ». ويعنى بالدقائق والتفاصيل ويسعى الى الكلمة المؤثرة المحيية والى اللون والحركة ويتجنب الكلام غير المألوف اللهم الا للهزء والتجريح كما في « المقامة البكجية » وهو لا يتورع كسائر المهجريين عن استعمال اللفظة التي تألفها اذنه حتى ولو لم تكن قاموسية.

جبران خليل جبران (١٨٨٣ – ١٩٣١)

ما كان جبران قد اتم الثانية عشرة عندما حملته امه مع اخيه واخته الى بوسطن ، الى حي الصينيين ، اقدم احياء المدينة واضيقها ، حيث تتعانق نواجيل الشبك واللافين على الارصفة القذرة. وارسلته الى مدرسة مجاورة تعلم فيها مبادئ الانكليزية مظهراً ميلاً الى التصوير. بعد سنوات ثلاث وقد توافر لاهله بعض المال جاء جبران الى معهد الحكمة في بيروت وتعلم العربية فيها طوال ثلاثة اعوام. وفي تلك الاثناء احب جارة له في بشري (حلا الضاهر) ابنة الشيخ. فاضطره التفارق الاجتماعي ان يختنق هذا الحب برعماً ويعود الى اميركة حيث انصرف الى الكتابة والرسم ومناجاة الحبيب البعيد. وفي ربيع ١٩٠٤ حملت « المهاجر » اول مقال له وعنوانه : « الرؤية » لفتت اليه الانظار فواصل الكتابة والنشر حتى قويت ثقته بنفسه فوضع بحثاً ذاتياً في الموسيقى تميز بالبساطة الانيقة على انطلاق خيال وجدة تشبيه. وبعد حين نشر حكايات ثلاثاً عنوانها « عرائس المروج » تناولت اولاها : « رماد الاجيال والنار الخالدة » ، كاهناً عاش في بعلبك قبل العهد الميلادي وقد اغتصب الموت عشيقته فلم يمت حبه بل كمن ناراً تحت رماد حتى اتقد من جديد سنة ١٨٩٠ حين عاد العاشقان الى بعلبك عينها وقد تقمصا غناماً وقروية بفضل عشتروت ليتذوقا من جديد « ملذات الحب ومجد الشبيبة »

والثانية « مرتا البانية » قصة يتيمة ساذجة غرر بها احد الفرسان ثم نبذها بعد ان حملت منه فتردت في البغاء لتعيل طفلها . والثالثة « يوحنا المجنون » ومسرحها يشري نفسها وقد ندد فيها بقسوة ببعض رجال الدين الذين استبدوا ببطل القصة .

وكان لهذه الاقاصيص الثورية بعض الرواج فتشجع جبران واصدر مجموعته الثانية « الارواح المتمردة » وفيها اربع قصص : « وردة الخاني » وهي تدور حول حسناء ابية استيقظت من غفلة الشباب فوجدت نفسها في منزل زوج هرم غمرها بماله لكنه ما استطاع ان يغمرها بحبه فعاشت بائسة مستوحدة حتى انتقت شقيقاً لروحها فلحقت به غير عابئة بعقد الزواج ولا بالتقاليد . و « صراخ القبور » وهي ترتكز الى حكم بالاعدام اصدره تعسفاً امير طاغية على مجرمين وبجرمة فعوقب الاول بالموت لانه قتل قائداً حاول اغتصاب رفيقة عمره والثاني شنق بشجرة لانه سرق زنبيل دقيق ليطعم اولاده الجياع والمجرمة جرت عارية الى الحقل لانها خانت زوجاً ارغمت على الاقتران به . و « مضجع العروس » حكاية فتاة احبت فتى ما لبثت ان شكت باخلاصه بسبب النسيبة ، فسلته وتزوجت من شاب آخر . وفي ليلة العرس استيقظ حبها القديم فانتحرت . و « خليل الكافر » وهي توسع في موضوع « يوحنا المجنون » الا ان مسرحها دير قزحيا لا دير مار اليشاع النبي .

كانت المجموعتان وسيلتين لنشر افكار جبران الثورية على الزواج القسري والاستبداد الاقطاعي ، حرك اشخاصها على هوى نظرياته . وقد لقيا في بعض الاوساط العربية والمهجرية رواجاً فتهافت الناشئة على قراءتهما وقد وجدت فيها تمرداً ظمئت اليه لا سيما وقد سبكه في اسلوب ملون ندي يختلف عن الأدب المومياتي المومى الذي كان ما يزال منتشراً على رغم النهضة الجديدة في اللغة والأدب . لكن بعض الاوساط الراقية في لبنان ان استعذبت اسلوب هذه القصص والخواطر التي جمعها فيما بعد في « دمعة وابتسامة » وان احبت التعبير المجنح في الحديث عن الموسيقى وان اشفقت على ضعف « مرتا البانية » وعلى بؤس « يوحنا المجنون » فانها ما كانت لترضى بالافكار الثورية الداعية الى الخروج على الشرائع والتقاليد ولا سيما شريعة الزواج فقامت حملة عنيفة على الأدب الجبراني المتمرد المسمى بـ « السم في الدسم » . الا ان جبران اعتز بهذه الحملة لانها شهرته في اكثر الاوساط ولان « الاضطهاد — كما يقول — غذاء المبادئ الجديدة » .

يشاء القدر ان تتعرف اميركية فاتنة حسناء ماري هسكل بجبران في معرض له فتعجب بتصويره وتساعده على السفر الى باريس . فتقضي هناك ثلاث سنوات يتعلم الرسم رجع بعدها الى بوسطن ثم انتقل الى نيويورك واقام في غرينتش — فيلاج . حي الفنانين . ثم نشر قصته « الاجنحة المتكسرة » التي كتبها قبل سفره وروى فيها حبه الاول جاعلاً « سلمى » على صورة حلا الشاعر . وهذه القصة سلسلة اعترافات وجيعة في اطار زاهر بالتشابيه والاستعارات الطريفة . وعن طريقها عرف جبران نسيب عريضة وخائيل نعيمة وبدأ التعارف بينهم وبين سائر الأدباء المجددين الذين جمعتهم ، ما عدا الريحاني ، الرابطة القلمية .

لكن جبران رغم مجده الادبي الطالع استمر فريسة « الملل الذي يميت » فاذا حياته في نيويورك كدولاب تحركه ايد خفية . دولاب اعوج لا يعرف الانسجام في دورانه كما يقول لي في رسالة اليها . وما لبث هذا الملل ان تفجر في اعماقه حنقاً على الجو الذي خلقه وعلى الناس فاذا هو في « المسيح المجنون » الذي ظهر في كتابه « العواصف » يخاطب نفسه ويريها ما يحيط بسجنها من كائنات عادت لا تليق بمن عرف نيتشه مثله : « هذا كالخنزير قذارة اما لحمه فلا يؤكل . وهذا كالجاموس خشونة . اما جلده فلا ينفع . وذاك كالحمار غباوة ولكنه يمشي على الاثنين . وذلك كالغراب شؤماً ولكنه يبيع نعيه في المآكل وتلك كالطاووس تيهاً واعجاباً . اما ريشها فمستعار » .

ويبقى من ثورة نفسه نور لا يضل به على مظاهر العمران والحضارة ، فاذا القصور والمعاهد اوكار ضيقة تحجب النور فتذبل في ظلالها ازاهر الشباب وتترمد في زواياها جمرة الحب . واذا الشوارع والازقة اودية خطرة يتربص في منعرجاتها اللصوص والخلائق العجيبة . غير ان هذه الثورة المجسدة في « العواصف » ما لبثت ان هدأت فاذا جبران يتمرس على الكتابة بالانكليزية وقد ساعدته عليها ماري هسكل وكان اول ما نشره في هذه اللغة « المجنون » وهو الكائن الجبراني الذي تجرد من براقعه الكثيفة فصار يحس بالشمس ساطعة امام عينيه ، وصار يرى في الانسان والله والعالم وحدة لا تتجزأ وصار يمجد القوة ويحتقر الجبن والاستسلام . انه مزيج من الناصري وزردشت بل هو « الجبران » الذي كان يود يومئذ لو يكونه قبل ان تتبلور في ذهنه فكرة « النبي » . فهو ان تكلم فكالرسل او الانبياء . « الحق الحق اقول

لكم ». وان تمنى فاقصى مناه ان يصلب كما صلب الشهداء . انه غريب على هذه الارض يحاول عبثاً ان يتناهى والغير . انهم من غير جبلته . « لم انا ها هنا يا الهة النفوس الضائعة ؟ ! انه كالليل صامت وعميق . في قلب وحدته تكمن الاهة تتمخض بمولود علوي تأتلق بكيانه الجنة والجحيم . وفي اذنيه تخيب الامم المستعبدة والتحسر على الممالك المنهجورة . وفي نفسه يحمل وقر الشرق العربي المستضعف المتقاعس عن رسالته .

في « المجنون » حكايات لاذعة التهكم ، بعيدة المغزى . تجسد مرارة الحيبة والنقمة على الخبث والجهل والتحجر . ولربما جعل المؤلف بطله مجنوناً ليصح فيه قول المثل السائر : « مجنون يحكي وعاقل يفهم » او لان الجنون ، على زعمه ، هو اول خطوة نحو التجرد الرباني وهو يساعد ، في عرفه كما في عرف المدرسة السريالية ، على ادراك ما وراء نقاب العقل من اسرار .

بعد ان صدر « المجنون » راح جبران يعدّ قصيدته « المواكب » للطبع فاصدرها في سنة ١٩١٨ اثينة الاخراج ، مزينة بالرسوم الحجازية .

والقصيدة طويلة وموزونة ومقفاة على غير عادة جبران . فيها صوتان متقابلان . بل متكاملان ، وكأنهما في حوار . اولهما يعبر عن نقمة الشاعر على حياة الانسان وما فيها من شر وقبح ولؤم وصراع وضعف وظلم ، فوجد ان الخير لا يتسع فيها الا جبراً ، وان اكثر الناس آلات متحركة . وافضلهم قطعان بعيد للذي يأتي الخضوع .

اما الصوت الثاني ، وفيه شيء من نبرة رومنسي ، فيتغنى بحياة الغاب ، حياة الفطرة والطبيعة ، حيث لا حزن ولا هم ولا سم ولا عقاب ولا ظلم ولا نزاع ، حيث القوة الخلاقة اللامنظورة تدير الامور على خير وجه ، وحيث اثنين الناي ، رمز التناغم في وجود الكائنات ، يبقى بعد ان يفنى الزمن وتفنى الحياة والذئوب والشموس والنجوم ...

والصوتان ، على ما يبدو ، ليسا صوت شيخ وصوت شاب يتعارضان . بل صوتي جبران نفسه . واحد يعبر عما ترى عينه من ألم وقبح وتشويش وقلق وشر والآخر يستوحي خياله فيصدر عن عالم الهدوء والامن والموسيقى والصفاء . انه حوار ذاتي يدور في اعماق الشاعر حول ما هو كائن وما يجب ان يكون . فلا ينتهي الصوت الاول من تبرمه بمفاهيم العدل والدين والعلم والحرية والحب وما اليها في دنيا البشر حتى يرد عليه الصوت الثاني : صوت فتى الغاب ، في نهاية كل مقطع فيجد الطبيعة وسلامها ونغمة الناي عنوان

الخلود والحياة الشاملة . انها وجهها الثنائية التي تعرف هنا في « مجنونه » الخير والشر . والروح والجسد . حاول ان يذوبهما هنا في وحدة الوجود :

« لم اجد في الغاب فرقاً بين روح وجسد
فالهواء ماء تبادى والندى ماء ركد
والثرى زهر تمادى والثرى زهر جمد »

شغل تأسيس الرابطة القلمية جبران فترة من الزمن انصرف بعدها الى الكتابة بالانكليزية فنشر « السابق » وموضوعه رمزي شعري : « اربع ضفادع اجتمعن على خشبة عائمة في النهر » فأخذن يتجادلن عن المحرك الذي يحركهن . قالت الاولى : انه الخشبة . وقالت الثانية انه الماء . بل هو الفكر ردت الثالثة معترضة . فلولا الفكر لما كانت الحركة . واذ لم يتفقن على رأي سألن الرابعة . فأجابت . ان كلاً من اخواتها اصابت فيما ارتأت . فالحركة انما هي في الخشبة وفي الماء وفي افكارهن ايضاً . فما كان منهن الا ان اخذن بخناق الاخيرة وقذفن بها الى النهر . وذلك لان كلاً منهن أبت ان يقال عن رأيها انه ليس معصياً وان آراء رفيقاتها هي الخطأ بعينه » .

وعدا الحكايات والامثال : العميقة الحكمة على بساطة السرد . يتضمن « السابق » قصائد منثورة يتناول اكثرها شقاء الروح في عالم المادة وتوقها الدائم الى العالم الاسمى حيث تعانق الروح الكونية الشاملة . ثم تتعدد من جديد فتستأنف دورانها في العالم الفاني حتى الازل . « كلنا سابق لنفسه . مما نحن عليه اليوم سيكون اساساً لما نصبح فيه غداً . فحياتنا الحاضرة هي لاحقة لحياة مضت قبلها وسابقة لحياة ستأتي بعدها . والحياة الآتية بعدها ستصبح بدورها سابقة لحياة اخرى . وهكذا بلا نهاية . نزرع في هذه الحياة ما جنيناه في حياة سابقة . ثم نحصد ما زرعناه في الحياة لنعود ونزرعه في حياة بعدها . فنحن الحقل ونحن الزارعون ونحن الحصاد ونحن الحاصدون » .

انها الافكار الجبرانية عينها التي شكلت اللحمة الرئيسية في آثاره العربية يرددها في قالب انكليزي لا يختلف عن القالب العربي الا بقدر ما تقتضيه عبقرية اللغة الانكليزية من اقتصاد في التزويق . وبقدر ما تسمح له امكاناته فيها الانطلاق في مهب الخيال .

شدّ جبران الى بوسطن وشج وثيق فكان يؤمها بين حين وحين . كان فيها مس هاسكل واخته مريانا وخلان اعزاء . وكانت فيها ذكريات شبابه

الحلوة ـ المريرة تشقى على الجو سراباً عاطفياً مغرياً . الا ان هذا السراب تتلمس ذات يوم فبدأ الواقع المجرد بألوانه الباهتة وظلاله المكفهرة وضجيجه وعجيجه . فاذا هو في تلك المدينة بين صحته المشوشة ومشيئة الناس به أشبه شيء بآلة موسيقية محلولة الاوتار في يد جبار يضرب عليها انغاماً غريبة خالية من الالفة والتناسب ؛ بل اذا هو بين الف عمل وعمل مثل نحلة مريضة في حديقة ازهار .

ويلجّ به الحنين الى لبنان واوديته وبيادره حيث الطبيعة الهادئة ارفق به من الناس وأوفى . لكن انّى له ان يرجع اليه ومشاغله الكثيرة تفرض عليه البقاء في اميركا : وجسده المتهازل يبعث في نشاطه فتوراً يزيد .

بعد «السابق» ظهر «النبي» سنة ١٩٢٣ في غلاف اسود عليه صورة النبي «المصطفى» وقد جرى احد عشر رسماً تنطبق على مغزى الفصول وتساعد في تنوير غوامضها .

وضع جبران «نبيه» بشكله النهائي ، وهو يعارك الداء المستبد ولا يدري ما تكون نتيجة العراك . كان يكتب منه صفحة : وهو يفرغ التصومعة مهدداً أله : وصفحة وهو يتنزه في «السترال بارك» شتاء : او في غاب كوجاست : على الشاطئ صيفاً . وقد خطه على دفترين احمرين كتب بالعربية في نهاية ايلما : «يا اخي ان كل مشكلة تقلقك قد اقلقتني ايضاً» وفي آخر الثاني : «ساعد يا ربي لتكتب حقيقتك مغلفة بجمالك في هذا الكتاب» .

انطوى «النبي» ، الذي يعتبر بحق رائعة جبران . على خلاصة آراء المؤلف في الحب : والزواج : والاولاد : والبيوت : والثياب : والبيع : والشراء : والألم : والجرائم : والعقوبات : والحرية : والشرائع : والعطاء : والعقل : والهوى : والاثم : والصداقة : والدين : والموت : واللذة : والجمال . وقد وردت على لسان نبي سمي «المصطفى» .

حلّ المصطفى في مدينة اورفليس ومكث فيها اثني عشرة سنة مترقباً عودة سفينته ليستقلها ويرجع الى حيث ولد . كانت ايامه في تلك المدينة ، كآبة موصولة ووحدة أليمة . لكن عزّ عليه ان يغادرها . لانه احبّها . ولما دنت ساعة الرحيل ودّ لو يصحب الجوّ الذي اودعه بعض روحه . لكن هيهات ان يحمل النسر عشه عند الانطلاق ... فتنازع نفسه شعوران متناقضان : لذة الانعتاق من الغربة ، وحرقة الوداع .

اجتمع اهل اورفليس ساعة الزحيل حول المصطفى واسترحموه ان يبقى بينهم لانه روح محبة ونور مشرق . ولانهم احبوه واحبوه ولم يدركوا عمق هذه المحبة الا عند الفراق . وكان بين هؤلاء امرأة . ولا كالنساء . احبها « المشرة » (لعلها مارى هاسكل !) كان يتطلعها « النبي » بحنان وحب لانها اول من آمن به . سألته ان يخطب فيهم . ويفيض عليهم من حكمته . ويكشف لهم اسرار الحياة من المهد الى اللحد . فلبى بسخاء ...

وهمست المشرة تسأل : والمصطفى يجيب : فاذا المحبة نار تطهر الانسان بعد ان تحرره من قشوره وتطحنه وتعجنه . لتجعل منه خبزاً مقدساً لمائدة الاله . واذا العطاء في الطبيعة حاجة كيانية . فالقطعان والاشجار لم تعط تعرضت للهلاك . فالحياة هي التي تعطي الحياة . والانسان ان هو الا شاهد على عطائه ليس الا . واذا العمل بركة وتحقيق لحلم الارض البعيد : يخصب المعرفة بقدر ما تخصبه المحبة . واذا الفرح والترح توأمان لا ينفصلان يأتيان معاً ويمضيان معاً . واذا القتيل مشارك في الجريمة . لان المجموع متضامن مع الفرد في السير نحو الذات الالهية . واذا جذور الشر وجذور الخير مشتبكة معاً في قلب الارض الصامت . واذا توبيخ الضمير هو العدالة التي تتوخاها الشريعة . واذا الالم انكسار القشرة التي تغلف الادراك . وذا الخير في الانسان حنين الى ذاته المجاورة . واذا الجسد قيثارة النفس . وذا الجمال قلب منقلب . ونفس منتونة . وابدية تنظر الى ذاتها في مرآة . واذا الدين كل ما في الحياة من عمل وتأمل . واذا الرب يمشي في السحاب ويبتسم بثغور الازهار . واذا الموت ذوبان في حرارة الشمس .

وآن المساء فنزل المصطفى من على درجات الهيكل يمشي . فتبعه الشعب بأسره حتى المرفأ ليودعه ويعده بالرجوع اليه مع المد . واستقل السفينة مليئاً امر الرياح بالذهاب وقد بارك اهل اورفليس الذين احبهم من اعماق قلبه مع انه لم يخالطهم . ولم يدخل مساكنهم . وعاد الى جزيرته . مسقط رأسه . كما عاد زرادشت في آخر المطاف الى جزائره البعيدة .

ووصل الجدول الى البحر . واتيح للام العظيمة ان تضم ابنها الى صدرها من جديد . لكنه سيعود لان امرأة اخرى ستلده .

وبلغ الاسلوب الجبراني حدّه الاسمى في هذا الكتاب : فاستقامت الانكليزية للمؤلف استقامة لم تتوفر في العربية على وحدانية الجوهر . الا انه سواء كتب بلغة الضاد . ام بلغة شكسبير : كان يصور افكاره تصويراً

ويستنبط الالفاظ اقصى طاقتها الايحائية في اتساق تركيبه وضبطه بالنسبة الى المعاني التي تؤدي .

وما اكتفى جبران بتبيه الذي جعله عالمي الشهرة بعد حين بل واصل مطافه الطويل فنشر «رمل وزبد» . مجموعة خواطر بل حفنة من الرمل وقبضة من الزبد ، على حد تعبيره . جاء فيها ان الانسان عابر طريق في هذه الحياة . يتمشى على شواطئها فيمحو المد آثار قدميه وتذهب الريح بالزبد . الا ان البحر والشاطئ (رمز الحياة) يظلان الى الابد ، وعناصر الطبيعة تتحول على غير انقطاع . الضباب يصير دودة والدودة عصفوراً والعصفور رجلاً والرجل ضباباً من جديد .

انها نظرات جبران المألوفة في التناسخ . وفي وجود الروحانا . وفي اتحاد الانسان بالطبيعة على الطريقة الحلولية وفي الوهية الانسان بالقوة يعبر عنها هنا في غير طريقة الاسلوب . تظهر خلال التناقضات البيانية والكنايات .

ما ان تنفض جبران يده من «رمل وزبد» حتى انكب على «يسوع ابن الانسان» . ذلك الكتاب الذي شاءه تتويجاً لرسالته الادبية . فما انقضى ثمانية عشر شهراً حتى صدر انيقاً في اخراجه ، غنياً في اسلوبه ، غنياً في رسومه .

ما اراد ان يكتب سيرة يسوع كتابة المؤرخ المدقق بل رام ان يرسم صورة شعرية لمفهوم خاص . كان يرى ان المسيح ، عاش حياته البشرية حتى الطفاف فما ترك كأساً من كؤوس النشوة الانسانية الا تجرعها ولا لذة انسانياً الا عاناه من خلال الوهته ولم يعرف حياته ضباب ولا دنس .

اما طريقة التعبير عن هذا المفهوم فخاصة به . لقد جعل سبعة وسبعين رجلاً وامرأة من معاصري يسوع ، منهم من ذكره الانجيل ومنهم من ولده خياله ، يتحدثون عن الناصري ، كلاً على هواه . ويبينون خطوط صورته العجيبة كما وعاها المؤلف . ويختم الاحاديث رجل من لبنان (لا يختلف كثيراً عن جبران) بعد تسعة عشر قرناً فيرى ان اولئك الذين رفعوا الصليب على كل قمة انما رفعوه دليلاً لاقدامهم الدائمة . فهم لا يقصدون تكريم الرجل الحي الذي فتح عينيه ونظر الى الشمس باجفان غير مرتعشة لانهم لا يعرفون هذا الرجل ولا يريدون اتباع خطاه . والذبائح التي يقدمونها امام عرشه ، انما يقدمونها لذواتهم السجينة ، بينما هو وحده ذاتهم البعيدة وشوقهم اللامحد .

بعد « يسوع » نشر جبران كتابه « آلهة الارض » وفيه نظراته في الحياة والانسان وقد خبرها الاختبار المكثف . واهمها سعي الانسان الى مجاراة الآلهة . لان مجده لا يبدأ الا عندما تمتص شفاه الآلهة المقدسة نسغه الخالص على غير هدى ؛ وكما ان حبة الحنطة الصماء تتحول الى الشهوة محبة عندما يبتلعها البلبل . هكذا الانسان لا يتذوق الالوهية الا اذا كان خبز الآلهة . عند ذلك يجرد نفسه من حدود الزمان والمكان ليعبر الى عالم الشفق البعيد . ولربما استيقظ في فجر عالم آخر ؛ لكن المحبة باقية ولن تمحى آثارها . انها السلم الذي يصل الارض بالسماء .

لكن طاقة الجسم حداً مهما يكن شأن الارادة فقد اعتلت صحة جبران نتيجة النشاط المتواصل كتابة وتصويراً فتوقف مرغماً وتاق الى تلك الراحة التي تبعث الحيوية في عروقه تحت ظلال الارز .

« الألم يد خفية تكسر قشرة النواة لتستنبت لبابها . لم ازل رهن الاطباء الاخصائيين وسأبقى رهن مقاييسهم وموازينهم حتى يتمرد جسدي عليهم او تتمرد روحي على جسدي . ولكن تمردت او لم اتمرد فلا بد من الرجوع الى لبنان ؛ لا بد من التملص من هذه المدينة الساترة على دواليب ومعانقة تلك المدينة المتلألئة بنور الشمس . انني اريد ان اذهب الى لبنان وابقى ذاهباً »[1] .

لكنه ما استطاع ان يحقق حلمه هذا . فانطفأ وهو في عنفوان العطاء تاركاً كتابين ظهرا بعد موته « النائه » و « حديقة النبي » .

وغاب ذلك الوجه المشرق الذي طبع مرحلة انطلاق الادب المعاصر بطابعه المميز . فاذا المدرسة الجبرانية تنتشر في كل بلد عربي . واذا ما كتبه المغتربون عن صاحب « النبي » وترجموه في الاميركتين لا يعادله الا ما انتهى من وحي لبنان . واذا « النبي » ؛ وقد ترجم الى ٣٩ لغة[2] يتصدر واجهات المكتبات في الولايات المتحدة منذ حوالى نصف قرن ويستمر فيتلو الكثيرون آياته وكأنها من الاسفار المقدسة . واذا ضريحه محجة كل سائح عرف بلادنا خلال هذا الساحر . على حد تعبير آلاف المعجبات والمعجبين به . الذي دخل الاسطورة والتاريخ من الباب العريض .

(١) رسالة الى فيلكس فارس سنة ١٩٣٠ .

(٢) له في العربية وحدها اربع ترجمات : للارشمندريت بشير ؛ نخايل نعيمه ؛ ليوسف الخال ، ونشرت عكاشه .

وله بالفرنسية اربع : للآنسة بولانجه ، لكيل ابو سوان . لشارل قرم ؛ لانطوان كرم .

ايليا ابو ماضي (١٨٩١ — ١٩٥٨)

ترك لبنان (الحيدثة) وهو في اول العمر الى مصر حيث مارس الصحافة في « الهلال » الا انه لم يتبع طويلاً بعمله هذا فاجتذبته الولايات المتحدة وآفاقها الرحبة اليها فسافر الى نيويورك وأنشأ فيها صحيفته « السمير » واتصل برفاقه الشعراء المهاجرين الذين جمعتهم فيما بعد الرابطة القلمية فحدث انقلاب في نظريته الشعرية . فبعد ان كان ينظم الشعر على طريقة العباسيين وهو في وادي النيل تحوّل الى التجديد في المباني والمعاني : فاشتهر شاعراً اكثر منه صحفياً على رغم استمراره بالتحرير . وقد جمع قصائده في ديوانين « الجداول » و « الخمائل » . كان ابرز من دعا اليه في الصحافة الشاعل الدبني على طريقة امين الريحاني فتميز بنقده الساخر اللاذع . اما في شعره فقد تجاوز الخصائص العامة التي ميّزت الشعر المهجري فلقح قصائده بنزعة فلسفية صريحة .

ايليا ابو ماضي شاعر واقعي عضه البؤس فولّد فيه مرارة ونقمة على الوجود والقدر . وقد بلغت به النقمة حدّ الشك بكل شيء لربما بانتظار اليقين عن طريق الشك ، لكنه ضاع قبل الوصول . اسئلة كثيرة طرحها على ذاته حول معنى الحياة والحرية والموت وما بعده فعجز عن جواب يطمئن اليه فاذا هذا القلق محور الكثير من شعره ولا سيما قصيدتيه : « الطلاسم » و « لست ادري » غير ان « اللست ادري » التي تتردد كاللازمة لا تتخذ في شعره شكلاً مذهبياً بل تظل احساساً شعرياً غامضاً . ولعل مصدر هذا التشاؤم هو طموح الشاعر الكبير وعجزه عن تحقيق الا القليل مما صبت اليه نفسه ، حتى هذا القليل لم يبق منه الا ظل بعد المثال . لذا انكمش على ذاته في اثانية حاقدة وانشد :

كل نجم لا اهتـــداء به لا أبـــالي لاح او غربا
كل نهر لا ارتواء بـــه لا ابـــالي سال او نضبا

لقد يئس حتى من النعيم فدعا الى التمتع بملذات الحياة قبل الرحيل . غير انه مع هذا آمن بخلود الشاعر لانه بشعره يتحدى الفناء :

لا تجزعي فالموت ليس يغيرنا فلنـــا اياب بعده ونشور

ان بعض قصائد ايليا ابو ماضي في الدعوة الى اللذة تذكرنا بعمر الخيام ولا سيما « تعالي » :

تعالي نتعاطى كأس الخمر او سمّ ... ونسقي النرجس بقايا الراح في الكأس
فلا يعرف من نحن ولا يدري ما نصنع ... ولا يقال عند الصبح نجوانا الى الناس
تعالي نسرق اللذات ما ساعدنا الدهر ... وما دمنا وما دامت لنا في العيش آمال
فان مر بنا الفجر وما ايقظنا الفجر ... فما يوقظنا عالم ولا يوقظنا مـــال
تعالي نطلق الروحين من حبس التقاليد ... فيلهو زهر والوادي ويلهو العطر في الوادي
وهذا الخمر تيه فخور بالاشاريد ... فمن ذا عفف الزهر او من وبخ الشادي؟

وشبلي ايوب (١٨٧١–١٩٤١)

لقد آمن وشبلي ايوب كذلك و بدواه ، الخمرة لكنه ما تورط في الشك بل استعان بالنشوة كما استعان بها ابو نواس وسيلة للذهول عن وقع مواليم .

وقائلـــة لمـــا رأتـــني مكثرا ... من الخمر ان الخمر تذهب بالنب
فقلت دعيني في رشادي فانني ... اعوض عما يشرب الحزن من قلبي

ثم يحول قط ان يفلسف شعره بل هو فطرياً ينظم قصيدته كما يغني موّالا او يثر على العود ترجيعاً لمحزون . وهو في دواوينه الثلاثة «الايوبيات» و «اغاني الدرويش» و «ذهب الدنيا» لم يتجاوز الخصائص التي ميّزت الشعر المهجري بوجه عام .

ميخائيل نعيمه (ولد في بسكنتا سنة ١٨٨٩)

لا شك ان ميخائيل نعيمه ادى دوراً مهماً في تطاق الادب المهجري ان قل شأنه عن دور جبران فانه ما قل عن دور اي اديب مغترب آخر . فهو بعد ان تعلم في الناصرة في المدرسة الروسية واكمل دراسته في روسيا نفسها سافر الى اميركا لتحصيل الجامعي وبمزاولة التجارة بالوقت ذاته . وهناك في نيويورك كان التقاؤه بجبران اللحظة الحاسمة في جمع شمل الادباء اللبنانيين والسوريين في الولايات المتحدة وتعاونهم في سبيل خلق حركة جديدة تجلت في الرابطة القلمية .

بيد ان نعيمه ، بعد موت جبران ، عاد الى لبنان ليعيش ناسكاً في شخروبه بجوار صنين فقضى اكثر عمره في الوطن الاول وكتب فيه معظم نتاجه النثري . لكن هذا النتاج كان في اكثره اما توسعاً في افكار عبّر عنها في المهجر بشكل بدائي ثم انضجها في صفاء التأمل واما تعبيراً عن خواطر عنّت له هناك وتمخض بها . كتابه عن جبران مثلاً ولو ظهر في

لبنان فانما هو نتاج اختباره المهجري وكذلك «سبعون» في جزئيه الاولين وبعض نظرياته في «مرداد» و«المراحل» و«زاد المعاد». لذلك ان لم نتبسط في درس هذه المؤلفات باعتبارها من نتاج مقيم فلا يسعنا الا ان نلقي نظرة عامة على طريقته الكتابية التي ظلت هي هي. وعلى خط تفكيره الفلسفي الذي ما زال في سياق نقطة انطلاقه. اما المؤلفات التي كتبها نعيمه في اميركا فهي. عدا ديوانه «همس الجفون» و«كان ما كان» و«الغربال» و«مذكرات الارقش» و«الآباء والبنون».

«كان ما كان» مجموعة قصصية من وحي لبنان وعاداته وتقاليده ومن وحي الهجرة كتبها باسلوب فكه ساخر سار عليه في مجموعتيه اللاحقتين «اكابر» و«ابو بطة» الا انه تميّز في مجموعته الاولى بطرافة قلما وجدناها في القصص اللاحقة. قصته «ساعة الكوكو» مثلاً وما ترمز اليه من العقلية المنفتحة على عالم مذهل تبقى مرحلة في تاريخ تطور القصة القصيرة. اما «الغربال» فهو مجموعة دراسات نقدية تصدّى فيها للادب المعاصر بجرأة ومنطق ولا سيما الادب المهجري فدافع عن الذين أُخذت عليهم هنات لغوية دون التفات الى الجوهر المبتكر. مقاله «نقيق الضفادع» نموذج حيّ عن طريقته النقدية البارعة:

«ان اللغة التي هي مظهر من مظاهر الحياة لا تخضع الا لقوانين الحياة. فهي تنتقي المناسب وتحتفظ من المناسب بالانسب في كل حالة من حالاتها. وكالشجرة تبدل اغصانها اليابسة باغصان خضراء واوراقها الميتة باوراق حيّة. وحين لا يبقى لها في تربتها من غذاء تموت بفروعها وجذورها.

«... سألتكم يا سادتي باسم العدل والفهم والقاموس. لماذا جاز لبدوي لا اعرفه ولا تعرفونه ان يدخل على لغتكم كلمة «استحم»[1] ولا يجوز لشاعر اعرفه وتعرفونه ان يجعلها «تحمم»؟ وانتم تفهمون قصده بل تفهمون «تحمّم» قبل ان تفهموا «استحم». ان شأننا مع فضادع الادب لشأن والله غريب عجيب. يطالعون ما نكتب فيقولون: نعم الافكار ونعم العواطف ونعم الاسلوب لكن... «اللغة»: كأننا فيما نكتب او ننظم نلقي عليهم دروساً في اللغة وكأن لا همّ لنا من النظم الا ان نتحاشى الخطف والاشباع واستعمال «تحمّم» بدلاً من «استحم»».

(١) اشارة الى جبران حيث يقول: «هل تحمت بعطر» في «المواكب».

قدّم عباس محمود العقاد « لغربال » بقوله : « صفاء في الذهن واستقامة في النقد وغيرة على الاصلاح وفهم لوظيفة الادب وقبس من الفلسفة ولذعة من انتهكم ... رأيت قلماً جاهداً في طلب الشعر الصحيح : شعر الحياة لا شعر الزخارف والعطل ، ورأيته ينعي على الشعر الزيف الذي تركنا بلا شعر ولم يبق في حياتنا ما ليس منظوماً سوى عواطفنا وافكارنا ، ورأيته يريد من الشاعر ان يكون نبياً وينكر ان يكون بهلواناً ، ويريد من الشعر ان يكون وحياً وإلهاماً وينكر ان يكون ضرباً من الجلجل والجمز والمشي على الاسلاك والانتصاب على الرأس ورفع الاثقال بالاسنان ولف الرجلين حول العنق الى ما هنالك من الحركات التي تجيدها القردة ايما اجادة » .

« فذكرات الارقش » خواطر في الحياة والوجود فيها بذور افكاره الصوفية التي نجلت فيما بعد تشكلت نواة مذهب حلولي . اما « الآباء والبنون » فمحاولة مسرحية حول الخلاف الابدي بين الآباء والبنين والتباين الدائم بين القديم والحديث في اطار شرقي كتبها بلغة فصيحة وعامية في آن واحد وقد وضع لها توطئة تناول فيها الرواية التمثيلية العربية وتطورها قال فيها : « الرواية التمثيلية : من بين كل الاساليب . لا تستطيع ان تستغني عن اللغة العامية . انما « العقدة » هي اننا لو اتبعنا هذه القاعدة لوجب ان نكتب كل رواياتنا باللغة العامية وذلك يعني انتراض لغتنا الفصحى فأين المخرج » . وقد وجد نعيمه المخرج في جعل متعلمينا من اشخاص مسرحيته يتكلمون لغة معربة والاميين لغة عامية[1] .

اما « جبران خليل جبران » الذي نشره في بيروت بعد رجوعه فهو سيرة روائية لصاحب « النبي » وضعت باسلوب رائع الحبرية اجمع النقّاد على الاشادة بها ، رغم ان معظمهم اخذ على المضمون مآخذ شتى . منهم من رأى ان نعيمه لم يرو حياة جبران بل حياته هو من خلال جبران على حد قول صلاح لبكي . ومنهم من رأى ان المؤلف لم يكتب عن جبران كما هو بل كما رآه وتصوره وتخيله . ومنهم من رأى ان نعيمه حاول لغاية في النفس ان يحط من قدر جبران فيجعله يؤدي دوراً ثانوياً بالنسبة اليه . ومن هؤلاء امين الريحاني .

بعد ان رجع نعيمه الى لبنان كتب في جميع انواع الادب من القصة

(١) اصدر نعيمه مسرحيته الثانية سنة ١٩٦٩ وعنوانها « ايوب » بصفة فصحى باعتبار ان موضوعها تاريخي .

الى الرواية الى البحث الى المقالة الفلسفية الى الخواطر الى اليوميات الى المسرحية غير ان اسلوبه الكتابي قلما تغيّر من حيث البساطة والدقة في التعبير . لكن اللذعة الساخرة تقلصت منه مع الايام خصوصاً وان ناسك الشخروب تطور في صوفيته حتى تغلب الطابع التبشيري على تفكيره . اما افكاره التي انضجتها التجارب فلها بذور كثيرة في كتاباته الاولى . قال مثلاً في مقدمة « الغربال » : « الطبيعة اكبر مغربل . اولا تراها في كل حالاتها تنبذ وتحتفظ ؟ الا تراها في الشتاء تكفن الارض بالثلوج او تغمرها بالغيث لتحفظ من الفساد ما في رحمها من جراثيم الحياة واذ يأتي الربيع تحول الثلج ماء وترسل ما زاد منه عن حاجتها الى البحور . وما بقي تبعثه مع حرارة الشمس الى لباب الحبة قوة تنشط بها من الموت الى الحياة .. وعندما تنبثق الحياة اوراقاً وزهاراً تحتفظ بالازهار الى ان تكون الاثمار وتبعثر الازهار » .

انه مبدأ الوحدة بين الانسان والطبيعة والخالق والعودة الخالدة وسمو الروح كما تفهمها الهندوية قد بدأ يطل برأسه ليتجلى فيما بعد في « مرداد » . ومرداد هو النبي المرشد الى طريق الروح التي تهيئ له « المراحل » مرحلة الزرقانا . او في « اليوم الاخير » حيث يقول : « فما دام في الكون ما يزعجني دمت بعيداً عن الانسجام مع الكون : وما لم انسجم مع الكون انسجام قطرة الماء مع البحر سأبقى في صراع مع الكون » .

ان الوان الادب على اختلافها بالنسبة الى مخايل نعيمه ما هي ذرائع فنية للتعبير عن افكاره الحلولية الروحانية في الكون والانسان والطبيعة . حتى في شعره الذي انطوى على اكثره ديوانه « همس الجفون » تبرز هذه النزعة من خلال الحنين الى المطلق .

كتب نعيمه بالانكليزية والروسية شعراً قليلاً . فقصيدته « النهر المتجمد » كتبها اولاً بالروسية ثم ترجمها الى العربية . وبين قصائده بالانكليزية « السباق الذي لا ينتهي » التي نشرت التايمس سنة ١٩٢٨ وترجم هو نفسه بعض قصائده الى العربية ويقول في خاتمة احداها :

« ناري تميد وتلهث وتلملم السنتها
والرماد يختم شفتيها على مهل
والذي اخفاه عني تحت خاتمه
سأبى على كشفه الليل الغيور »

الا ان نعيمه عاد في لبنان فكتب من جديد بالانكليزية « جبران خليل جبران » و « مرداد » .

وثمة ادباء في الولايات المتحدة ولكسيك امثال نعمه الحاج وسعود سماحة وتوفيق الشرتوني لم يتجاوزوا في شعرهم وفي نثرهم الخصائص العامة للشعر المهجري . وكذلك في اميركا الجنوبية . لذا لن نتوقف الا عند البارزين من اعضاء « العصبة الاندلسية » .

الشاعر القروي (ولد في البرباره سنة ١٨٨٧)

سافر في اول عمره الى اميركا الجنوبية وجال « الكشة » كما رأينا في مذكراته . لكنه ان لم ينجح في التجارة فقد نجح في شعره ولا سيما الوطني منه وفي بعضه نفس ملحمي .

في شعره حنين الى لبنان كما في قوله : « احن الى لبنان حنيناً يغلبني على امري . اشتهي ان امشي على ترابه حافياً وان اتوسد خشبه وحجارته » .

« بربارتي هل بعد فيك من الاحبة من بقية

« يا برازيل لو افضت علي المال فيضاً ما طاب فيك المقام » .

الا انه اشتهر بدعوته العروبية حتى ان صديقه جورج صيدح لقبه بقديس الوطنية العربية . كان يدعو في شعره الى التحرر من التعصب الطائفي ومن الجهل والتفرقة في سبيل تضامن عربي متين يقف بوجه كل طامع . وفي شعره قصائد كثيرة دفاعاً عن القضية الفلسطينية واستثارة حمية العرب ومن ابرز قصائده تلك التي عنوانها « وعد بلفور » يقول في مطلعها :

« الحق منك ومن وعودك اكبر فاحسب حساب الحق يا متجبر »

وتناول رشيد سليم الخوري وهذا هو اسمه الحقيقي الصحافة في جريدة « الرابطة » فتولاها بعد موت مؤسسها خليل سعاده . لكنه لم يعرف الا شاعراً . وقد جمعت قصائده في عدة دواوين : « الاعاصير » . « الرشيديات » . « القرويات » . « البوكير » . « التمازج » .

اما الياس فرحات فقد جارى القروي في نزعته العروبية لكنه كان مقلاً . ومن ابرز شعره رباعياته التي صوّر فيها حياته وثورته على القدر ووصف آفات المجتمع العربي وطرق اصلاحه باسلوب ساخر احياناً :

« دع آل عيسى يسجدون لربهم عيسى وآل محمد لمحمد

انا لا اصدق ان نعت مؤمناً اوفى لربك من شريف ملحد

شعره غنائي عذب في اكثره . لكنه قليل التجديد مبنى ومعنى .

عقل الجر (١٨٨٦ – ١٩٤٦)

ترك بخشوش الى القاهرة حيث عمل مع مواطنه داود بركات في « الاهرام» ثم سافر الى البرازيل وأسس في ساوباولو النادي التينيقي الادبي مع فوزي المعلوف . كان في شعره محافظاً وابرز ما كتبه في الغزل وفي حب لبنان . وفي دعوة الابناء لبلوغ مجد الجدود :

لا بـــارك الله في يوم نـــام بـــه ... فـــيماً فيبرأ منا مجد ماضينا
الم نكن وعيون الشرق شاخصـــة ... شعباً عـــلى صغره فاق الملايينا
الم نكن وبخار الكون مسرحنـــا ... نلقي على ايبـــا شتا مراسينـــا
الم نكـــن لبني الدنيا اساتـــذة ... حتى حروف الهجاء من صنع ايدينا
انـــا ثبتنا ثبات الارز في جبـــل ... قد جاور الله في اعلى علينـــا

اما اخوه شكرالله الجر فقد سافر الى البرازيل سنة ١٩١٩ وأنشأ «الأندلس الجديدة» ناطقة باسم ادباء اميركا الجنوبية ثم مجلة « الزنابق » . كتب في النثر دراسة عن جبران « نبي اورفليس » ومجموعة نقدية « المنقار الاحمر » وله ديوانان « الروافد » و « زنابق التجر » .

فوزي المعلوف (١٨٩٩ – ١٩٣٠)

نشأ في بيت ادب وعلم في زحلة وتولى وظيفة في دمشق ثم سافر الى البرازيل سنة ١٩٢١ ومارس التجارة لكنه رغم يسر حاله عاش كئيباً متوحداً تتراءى له دائماً اطياف الموت الرهيب فيقول في مذكراته : « الموت ، الموت ، كلمة رهيبة مكتوبة في كل مكان : على اديم الغمام ، على صفحة الارض ، على متن الرياح ، على كم الزهرة ، على جذع الارزة ، على جبهة الانسان ، ... اتمنى ان يطرحني الدهر عند موتي في حضن الخريف بين اصفرار الاوراق وذبول الزهور وبكاء السماء . حينذاك قد ابسم عند عتبة الموت غير آسف لفراق حياة قطعتها في خريف صامت زاو وتركتها في خريف صامت زاو» . ويشاء القدر ان تتحقق امنية الشاعر السوداء فيموت بعيد الخريف وهو في زهرة ربيعه .

اهم آثاره الشعرية « على بساط الريح » وملحمة لم تنجز « شعلة العذاب » ومتفرقات مثل « اغاني الاندلس » و « تأوهات الروح » و « من قلب السماء » . وله في النثر مسرحية ناقصة .

و على بساط الريح » بناء شعري متكامل في اربعة عشر نشيداً متنوعة القوافي والاوزان ومركزة على فكرة رئيسية فكرة الشاعر الغريب في دنياه يحن الى موطن غير عالم التراب .

بين روحي وبين جسمي الاسير كان بعد — ذقت مره
انا في الارض... وهي فوق الاثير انا عبد — وهي حره

ينطلق الشاعر بالطيارة وراء احلامه تعله يحققها في العلى . لكنه ما ان حلّق حتى ادرك ان قيود الجسد هي التي تقف عثرة في سبيل تحرر الروح لانه عبد الشرائع والمال والغرور :

انا عبد الحياة ولست اشتي مكرهاً من قيودها تتحرره
عبد ما ضمن الشرائع من جور يخط القوي كل سطوره
عبد مالي . احظى به بعد جهد فاذا بي انوء من ثقل نيره
عبد اسمي ذوّبت روحي وجسمي طمعاً في خلوده ونشوره
عبد حبي : انزلته في فؤادي فكوى اضلعي بنار سعيره

قال الشاعر الاسباني فيلاسباسا : وقد ترجم هذه القصيدة الى الاسبانية. في مقدمته التحليلية : « علّق فوزي الشاعر ربابته على غصن صفصافة لتعزف على هوى الريح ناطقة بما في لغة الطبيعة من نبرات خفية تهمس بها الالوهة ... انه النزاع النفسي بين الشرقي وحضارة الغرب فاتزان الشاعر ما اختل بسبب هذا الصدام بين عالمين متعاكسين . فعبّر عن اروع ما في روح الشرق من جمال وقوة وخيال (تمثلها الشاعر) في وجه مدنية الغرب التي ترمز اليها الطائرة » .

شفيق المعلوف (ولد في زحلة سنة ١٩٠٦)

انه ابرز شعراء المهجر الجنوبي . ما زال يواصل رسالته الشعرية في البرازيل رغم اتساع نطاق اعماله . نظم مجموعة « الاحلام » في شبابه على الرومنطيقيين ثم برز كشاعر ملحمي كبير في « عبقر » وهي تقع في ٢٧٣ بيتاً يصف فيها رحلة الى ما وراء الطبيعة على غرار دانتيه او غوته في فاوست. الا ان شيطان « عبقر » لا يغوي بالضلال بل يوحي الشعر كما في الاسطورة العربية . ينام الشاعر ويستيقظ على الشيطان القادم من عبقر يدعوه اليه فيطير معه الى بلد الجن حيث يلتقي عراقة عبقر المزنرة بثعبان ثم سطيح الذي يعلمه الحكمة ثم ينتهي الى مقبرة فيها عظام الشعراء وقد

نقلها الشياطين الى عبقر فيستنطقها عما كانت عليه وآلت اليه ؛ وتنتهي الرؤيا الى نوع من الخيبة ولا يبقى الا الحلم .

في « عبقر » يستخرج شفيق المعلوف من الاساطير العربية البارزة مضامينها البعيدة ويربط بينها وينفذ من خلالها الى روحية الشاعر العربي وعبره الى كل شاعر . فقد عالج في هذه القصيدة الطويلة الموضوعات الكبرى التي تصدى لها جبران في « نبيّه » من الحياة الى الموت مروراً بالحب والبغض ، واللذة والالم ، والصفاء والاغتراب . ولعله اول شاعر اتخذ من الميثولوجيا العربية مادته الشعرية . وابرز ما يميز « عبقر » قوة الرؤيا التي يعبر عنها الشاعر بالاستعارات خلال صور خاطفة وايقاع متجانس . وقد ترجمت الى البرتغالية . فقال فيها الناقد اغريبنو غريكو « ما اروع ذلك المزج بين الروح الشرقية والروح الغربية الذي ينتهي بنا الى رؤية مدينة الجن ... هو اولئك الذين على رغم كل شيء لا يزالون يثقون بانتصار الحب انتصاراً تاماً . واذا كان في قلبه شيء من الكره فهو كره البغض الثنائي الذي يتجلى في كبريات المعارك . وهو كالقديسة تيريزيا يعتقد بشقاء ابليس لانه لا يستطيع ان يحب » . وقال الدكتور فؤاد البستاني في « عبقر » : « انها وحدة بنائية شاملة على تنوع الاجزاء وتضارب الاحاسيس واختلاف الاوزان والانغام . فهي خروج واستلال وابتكار وهي بناء واستقرار وثبات » .

ولشفيق المعلوف ايضاً مجموعتان شعريتان « نداء المجاذيف » و « لكل زهرة عير » اختار بعض ما فيها وجمع اليه قصائد اخرى ونشرها كلها في « سنابل واعوث » وقد تميزت بالموسيقى الباطنية مع الحرص على اصولية الوزن والقافية والسعي الى الصورة المبتكرة . يقول المعلوف في « نداء بعيد » :

نداء تردد عبر الحقب ... فكان له في الاصالع رجع
ومن ثلج صنين شب لهب ... وفي الارز حن الى الصوت جذع
نداء لحيرام ايام كان ... يسوق الاعاصير بالصولجان
نداء بعيد يهز السفوح ... فينجاب عن طلعة الفجر ليل
فتثير صيدون سيف الفتوح ... وتنقل في البحر اوجلا جبيل
ويزرع منكار من قلب صور ... فجاج البحار وكور النسور

اما ميشال المعلوف وجميل المعلوف فكانا مقلّين وحبيب مسعود عرف بنثره ولا سيما فيما كتبه على صفحات مجلته « العصبة الاندلسية » وكتابه

« جبران حياً وميتاً » لكن النثر على حدّ قوله لم يكن له شأنه في أدب الجنوب الاميركي . « فهو كالشاي البرازيلي الذي لا يسكر بينما الشعر خمرة معتقة » . اما سائر شعراء الجنوب كيوسف الغريب ويوسف الخاتوري وعبد اللطيف الخشن وسعيد اليازجي ووديع الشرتوني فقد جاروا التيار الرومنطيقي . وبين اهم ما كتب في النثر ادب المذكرات مثل يوميات توفيق فعون في ذكرى الهجرة ومذكرات خليل سليم بوعينين التي يتناول فيها حكاية نصف قرن من الاضطهاد . وقد ظهر في الاميركتين عدد من الكتّاب بلغات اجنبية فضلاً عن الصحفيين .

كتّاب بالانكليزية

عدا الادباء الذين اشتهروا باللغتين العربية والانكليزية كجبران والريحاني ثمة كتاب وصحفيون عرفوا بما كتبوه بلغات اجنبية ولا سيما الانكليزية والاسبانية والبورتغالية . نذكر نخبة منهم :

ابراهيم متري الريحاني (١٨٧٥ – ١٩٤٤)

استقى بروتستنتي مؤرخ ومفكر روحاني عاش في بوسطن وكتب حول تقريب الابعاد بين الشرق والغرب . من مؤلفاته : « سفر بعيد » يصف فيه مصاعب الطريق الى الحقيقة الازلية و « المسيح السوري » ويلقي فيه اضواء على حياة السيد المسيح في فلسطين (بيت لحم والناصرة والجليل) والجو الشرقي الخاص الذي عاش فيه و « حكماء الشرق والغرب » الذي تناول فيه النقاط المشتركة بين رسل الروح على مستوى المعرفة الخادقة الى المطلق . وله مجموعة قصص « كنوز واسمولا الخبلة » .

في « السفر البعيد » يروي سيرته منذ طفولته في الشوير وانتقاله مع اهله الى بتاتر والاجواء المتعمة بروح الله التي عاش فيها حتى انتقاله الى اميركا واتصاله بالنديتها . وله خواطر عنوانها « سبعة ايام مع الله » ينتقد فيها المدنية المادية التي غزت العالم وصرفت الناس الى الشؤون العملية على حساب التصوف الذي يرى فيه امر المسيحية باعتباره ينبوع رائد التصوفية . وهو لا يعتقد بان العلم الحديث يتعارض مع الدين بل على العكس يرى انه يرتكز على اسس اثبت .

فيليب حتي (ولد في لحلان سنة ١٨٨٦)

بعد ان تخرج من الجامعة الاميركية في بيروت سافر الى الولايات المتحدة سنة ١٩١٣ فأكمل فيها دراسته الجامعية ونال الدكتوراه في التاريخ والآداب. كانت اطروحته ترجمة ونقد كتاب «البلدان» للبلاذري. ثم عيّن استاذاً للآداب السامية في جامعة برنستون واستمر هناك يبحث في تاريخ الشرق العربي ويكتب عنه. لما اصدر كتابه «تاريخ العرب» (المترجم الى عدة لغات) لقي اسمه كمؤرخ يقتضي الحقائق من مصادرها الاولى ويتناول الوجوه الحضارية في التاريخ اكثر مما يتوقف عند تسلسل الاحداث وخروب وسير الملوك. اسهم في دائرتي المعارف البريطانية والاميركية ببحوث عدة عن الشرق ولا سيما عن الموارنة والدروز. وحرر في مجلات علمية كثيرة تعنى بالتاريخ مثل «سيكولوم» واقترن اسمه بالمجموعة الكبرى لمخطوطات العربية والفارسية والتركية المدونة في مجموعة «غاريت» الاميركية الشهيرة. وكتب فيما بعد تاريخ لبنان وسوريا وفلسطين ورسالة في المذهب الدرزي. وتاريخ سوريا. وبحثاً حول اللبنانيين والسوريين في اميركا، وهو ما يزال رغم سنه يزور الوطن الام في مواسم الصيف ليعود الى اميركا فيلقي محاضرات عن لبنان وقضاياه وقضايا العرب عامة ولا سيما قضية فلسطين.

من اطرف ما كتبه الدكتور حتي بعض مذكراته ايام الدراسة تحت السنديانة في مدرسة القبعة. واثر الصدف في حياته. وهو يقول انه كان من حظه انه كسر ذراعه ذات يوم فكان ذلك سبباً لاتصاله الاول بالمؤسسات الاميركية فدخل المستشفى الطبع لها. ولما رأى ابوه ان جسمه النحيل لم يمكنه من مساعدة اخيه النجار اشار عليه بان يستأنف الاتصال بالجامعة الاميركية ففعل واستطاع بذكائه ان يحصل على منحة تعليمية وانصرف الى التعليم مع اكماله الدراسة الى ان سافر الى اميركا للتخصص الجامعي فاختاره الحرب ان يبقى فيها.

سلوم رزق

عرف بكتابه «اميركي سوري الاصل» وقد روى فيه سيرته فوصف حياته البائسة ايام الطفولة في بلدة متواضعة في البقاع وصور بيئتها باسلوب مؤثر. ثم ذكر كيف اكتشف وهو يتيم الاب ان امه تحمل هوية اميركية وبحق له بالتالي ان يحمل ذات الهوية ويسافر الى الولايات المتحدة. وهكذا

كان فعزه على ان يكون جديراً بجنسية البلد الكبير الذي انتسب اليه. فأكب على الدرس والكتابة حتى اصبح احد المع المحاضرين في الولايات المتحدة. انه يصف بالتفصيل الاجواء الديمقراطية الرحبة التي عاش فيها ويشير الى دور المغتربين الكبير في الحياة الاميركية.

حبيب كاتبه

كتب قصصاً عربية باسلوب فكه. ومن ابرزها «ليالي عربية اخرى». «قصص عربية وحكايات». و«الروح الجديدة في الاراضي العربية». اسهم بتحرير مجلات «ذه بروكلن ديلي ايغل» و«ذه بوسطن غلوب» و«ديترويت نيوز» بين ١٩٢٩–١٩٣٠ وكتب بالعربية مذكراته عن رحلته الى الولايات المتحدة.

اقتبس حبيب كاتبه مستوحاة اما من التاريخ واما من الاساطير. يروي في احداها حكاية «حكم تراقوش» ومجالس «هارون الرشيد وابو النواس» ناهجاً نهج الف ليلة وليلة.

باحثون

ثمة كتّاب آخرون انصرفوا الى البحث التاريخي او العلمي كشارل عيسوي الذي الف في الاقتصاد السياسي وكتب تاريخ مصر والدكتورة نجلا عز الدين التي نشرت بحوثاً عن العرب وجبل مراد بارودي عضو الجمعية الاميركية للاقتصاد السيري في نيويورك وقد حرر بصورة منتظمة في «آسيا مغازين» ونشر مجموعة قصائد وجدانية يتجلى فيها الحنين الى الوطن الام منها «بعلبك» و«الارز شجرة لبنان». واسكندر ايكاريوس مؤلف «لبنان في الجو السياسي المضطرب» وجورج خيرالله مؤلف «الاسلام ومحمد» و«الصحافة» و«العالم العربي» و«سيرة جبران» ومترجم «المواكب» الى الانكليزية. وانطوني فارس الذي نقل آثار جبران من العربية الى الانكليزية ووضع بحوثاً تحليلية عنه. وابو رجيله وسيمة عطية وقد كتبا في تاريخ الشرق. وجون الياس لحيقه وقد كتب عن الحروب الاميركية.

وثمة شعراء نشروا دواوين او قصائد في مجلات مختصة تميزت بالنفحة الصوفية نذكر منهم مايكل حداد ومسعود سماحه وانطوني سعاده وماري داقيد (ديوانها عنوانه «العاري» وهو مجموعة اناشيد في الزهد والتوسل الى الله).

اما في الحقل العلمي الصرف فقد برز الدكتور غالب صليبي في بحوثه

في علم التناسل وتطوره في النسب والثقافة العنصرية وفي اساليب التوالد العنصري وحول الام والامومة. والدكتور فؤاد العقل واضع النظريات الجديدة في تطوير اساليب الجراحة ومؤلف «عندما يأتي الصيف» الذي يروي فيه سيرته وينتقد اساليب الطب التي تناقض تطور العلم الحديث. والدكتور مايكل دبغي جراح القلب الشهير ومؤلف عدة بحوث حول مصرف الدم. والدكتور مخايل جورج مالطي والمخترع كامل الصباح وله بحوث في الكهرباء وفي نظريات انشتين. ومؤلف نادر وهو ما زال حديث الصحافة الاميركية على اثر ظهور كتابه «غير مأمون في اية سرعة» الذي درس فيه قضية الامن بالسيارات والاخطار التي تتعرض لها بسبب قلة الدراية الآلية في الانتاج.

بالاسبانية والبرتغالية

عدا الصحفيين الذين أنشأوا صحفاً بالاسبانية او بالبرتغالية او حرروا في الصحف المحلية في اميركا الجنوبية: ثمة كتّاب عرفوا بهاتين اللغتين تأليفاً وترجمة: منهم بالاسبانية:

خوسيه منصور (١٩٠٩ـ١٩٦٥) وهو من مواليد الاورغواي وقد عين سفيراً لها في لبنان وتميز شعره بنفحة شرقية صوفية تجعل من الحب محور الوجود والكمال الانساني. يقول في احدى قصائده من مجموعة ورسائل الى ايلونا:

رنت مزامير الذهب في الكروم. نضجت العناقيد
ما صعدت لتقطيفها حين كانت تعيش الاعجوبة والغناء
سكنت مئات من اسراب السرور
والكرامون تركوا دورهم لانتظارك اسابيع
في طواحينهم وفي التواعير.

ايلونا تمثل حواء الخالدة رمز الحب الخالد. اما فكرة الوحشة فبعثها ان العالم ما هو الا ممر.

يبدو شعره غامضاً احياناً لانه يجرده من الحواشي والتفاصيل ليحصره في طاقة المضمون.

الدكتور جورج قدوم: مغامر درس الطب ثم عمل في السياسة العربية قبل سفره الى الاكوادور مع الملك فيصل فصار مستشاره ولما تبدلت الاحوال فرّ الى جبل الدروز ثم الى مصر فاميركا حيث أنشأ مجلة وكتب بحوثاً بالاسبانية والعربية حول الشرق ويشر بمذهب روحاني اعتنقه هو مذهب الهيكليين

وطاف ينشره في اميركا الجنوبية تحت شعار : « وابني الشمس . وطني الكون . ديني الحب . اسرتي البشر » . ومما يروى عنه انه كان في الاربعين يوم قضى الزلزال على بيته في الاكوادور فانشد لا مبالياً :

دعـــدع الزلزال بيتي ذاتحتي هكـــذا نبني بيوتاً تثنـــا
انـــني بالحب ابني مترلي جاعلاً من كل قلب مسكنا
فـــانا من اول في ابد كل شيء زائل الا انا

لويس غاوسيا موراليس : ولد في كراكاس سنة ١٩٢٩ . اصله من عائلة سركيس من حارة صخر (كسروان) وهو شاعر طليعي له ديوانان « حياة حزينة » و« العودة الخالدة » ينهج فيهما نهجاً توفيقياً بين الرمزية والرومانتيكية وهو يعتبر . حسب تصريح له يوم زار بيروت سنة ١٩٦٣ ، ان الشعر لا يكون اصيلاً الا اذا عبر عن الانسان في وضعه الخاص ومشكلاته الدائمة . الشاعر صدى بيئته وضمير جيله بدون ترمت اقليمي . وهو يرى ان من العبث محاولة فصل المبنى عن المعنى في الشعر . فكل موضوع يفرض شكله . وقد ترجم هذا الشاعر بعض الشعر اللبناني الحديث بالفرنسية الى الاسبانية ونشر في النحت الادبي الذي يديره في جريدة التايمز الكبرى في كراكاس بحثاً عن الحركة الادبية عندنا .

جورج كعدي : وقد نظم بالاسبانية ديوان « الاحلام » الوجداني وبالعربية « الكعديات » . مجموعة قصائد قومية .

ومن الشاعرات البارزات « ميرا دلار » (واسمها الحقيقي اولغا شمس) وقد كتبت شعراً رومانتيكياً رقيقاً ولها عدة دواوين « الخالد » « الابيات الجميلة » وخليط من الشعر الطلق . ولبنى شراره وليلى نفاع وقد نشرتا قصائد متفرقة في المجلات .

في المسرح . برز البيرتو ضو وقد اسهم في نهضة المسرح الكولومبي المعاصر ، من اهم انتاجه المسرحي « السيد بيروس المحبوب » . مسرحية مستمدة من التاريخ فيها نقد ساخر لفئوات المجتمع . وله مجموعة حكايات وروايات عنوانها « روح الشر » تتسم بطابع التوجيه الخلقي .

اما الذين مارسوا البحث في مختلف وجوهه فعددهم كبير جداً بينهم انطونيو شدياق . صاحب « لبنان منارة الحضارة العربية » والفريد ابو زيد وقد الف في الشرع والاقتصاد وماتوريل يونس . صاحب اطروحة « فلسفة في الثقافة » (التي كتبها هو نفسه بالعربية بعد رجوعه الى لبنان) وخوسيه لبكي وقد نشر عدة بحوث عن الشرق والثقافة العربية والتاريخ واصدر مجلة

ثقافية في كراكاس. والدكتور وليم نعمه الذي يعيش في المكسيك وقد الف تاريخ لبنان وبحوثاً عن الادب. والخطيب الفذ حبيب اسطفان (١٨٨٠ — ١٩٤٩) الذي أتقن عدة لغات وقد كتب بالاسبانية في الارجنتين فنشر «وجدان لا سياسة» و «الشعوب الاميركية» وانشأ صحيفة «اتصدن بالعربية».

اما في الثقافة العامة والتاريخ فبرز سالومون عبيد واسكندر قرداحي وانطون الياس وجورج معنف وانطونيو حلو وسمعان عويس وفريد الخوري ويحنا الدّاهوك وسليمان شاكر. صاحب مجلة «لا ليبانيسا» في سان دومانغو. والامير امين ارسلان وقد حرر في «لا برانسا» في الارجنتين. وميشال جورج خوري.

وفي الترجمة من العربية الى الاسبانية. عمل الكثيرون في نقل الأدب العربي الاصلي والأدب اللبناني المعاصر ولا سيما آثار جبران. من ابرزهم انطونيو شليطا صفير وقد ترجم «كليلة ودمنة» وقدم لها شارحاً مضامينها و «النبي» لجبران مع مقدمة عن المؤلف، ويوسف الغريب وجميل شوحي وقد ترجما مختارات لجبران والريحاني وبعض ادباء المهجر. وقد جمع شوحي مختارات من ٣٣ شاعراً. وانتخب رئيس جمعية كتّاب تشيلي. وطانيوس جورج بستاني: مؤلف «لبنان واللبنانيين في البرازيل» (بالاسبانية والبرتغالية).

اما الذين كتبوا بالبرتغالية في البرازيل ولا سيما في الشعر. فكثيرون منهم:

الدكتور جميل حداد: وهو عضو في المجمع العلمي في ساوباولو وله عدة دواوين منها «صلوات سوداء» و «حبيبي التمر». الاول من اللون الحزين استوحاه من مأساة امه وقد اغتيل ابوه قبل بلوغه الاربعين فاصطبغت حياة الشاعر وحياة امه بلون الدم. يقول في هذا الديوان:

كل شيء يصلي في هذا الكون حتى اليومة
في نحيبها ما يشبه الصلاة
زهور الربيع آلامها ودموعها
في اضلاعها وخز الشوك وفي اهدابها قطر الندى.

اما ديوانه الثاني فروماتيكي فيه بهجة وشروق. يقول في «وليمة الحب»:

في الوليمة الشهية التي تشتعلين فيها واشتعل
لأن كأس العذاب جذابة طاغية في جسمك المعطر
بالمسك والعنبر. وفي دمك الصارخ ودمي اللاهب
في هذه اللحظة الصاجة بالشهوة اوانا شعلة تتبلى شعلة

فرنسيسكو كرم: وله ديوان «ساعة المتعة» وقد تأثر فيه بلوركا

وبالأدب المهجري . وله كذلك بحوث في وصف مجاهل البرازيل . وهذا نموذج من شعره :

رأيتك شامخة شموخ الارز
تهوين علي وقد حسرتني
كما تهوي الشمس الغاربة في نفسي .

لقد سرت دنيا جبور على هذا النهج في شعرها وكذلك سلمى جورج في دواوينه « شرقيات » و « جمال الموت » و « غيم صحراوي » .

وثمة شاعر ناشئ هو اسكندر ابن شفيق المعلوف وقد ترجم الوالد لولده قصيدة « انا البحر » شعراً عربياً جاء في مطلعها :

انا البحر ان الحب مضيت مجرراً بذيلي اشلاء الضحايا ورائيا
ولو غمرتني بنجمة الصبح وارتمت مرغة جسماً على الشط عاريا
لغرت عليها من صخور حضنتها ورحت اعض الصخر بالشدق راغيا
فترتد عنه وهي تنفض حولها ، وجوماً تهاوت واحداً ثم تاليا
هي القبل الحرى تواصلني بها فتبوي على بعد ولكنها ليا

وفي القصة برز ماريو نعمه ونعيم ابو سمرا وباسيل غنام . وفي البحث توفيق قربان الذي هاجر الى البرازيل قبل الحرب الاولى وعلم في جامعة ساوباولو وقد اتقن عدة لغات : « الانكليزية والبرتغالية . على حد قوله ، للخطابة والكتابة والفرنسية والاسبانية للدرس والايطالية لتفهم دانته والالمانية للمصلحة التجارية والتركية واليونانية والعبرية للاستعانة على درس اصول العربية » . وقد كتب فصلاً بالانكليزية حول الاصول السامية في اللغة العربية والتصاقها باليونانية . من آثاره البرتغالية : « السوريون واللبنانيون في البرازيل » وهي نبذة عن تاريخ سوريا ولبنان منذ الفينيقيين حتى الحرب الاخيرة ومدى اسهام اللبنانيين والسوريين بالحضارة العالمية واسباب الهجرة وتطورها وواقع المغتربين بين الامس واليوم .

وفي نطاق البحث اللغوي وضع فؤاد نمر « شواهد البرتغالية وصلاتها باللغات الشرقية ، ولا سيما العربية ووضع رشيد عطية قاموساً عربياً برتغالياً في ثمانية اجزاء . فضلاً عن دراسة حول العربية ولهجاتها وما اخذت عنها البرتغالية والاسبانية وسائر اللغات الاوروبية . وفي البحث العلمي ، كتب جورج اليان نبذة عن تاريخ الطب العربي ، واميل كارليس بحوثاً اجتماعية وادوار دو يافت مذكرات حول سفرة قام بها الى اميركا الشمالية بعيد الحرب الاخيرة .

ولنصور شليطا دراسات متنوعة كتبها في البرازيل منها « جبران في

حياته وآثاره » . و«الادب العربي ينبوع جمال وغنى » ومدخل الى الادب العربي الحديث في مجموعة من هذا الأدب ترجمها باسلوب انيق دقيق هو نوع من اعادة الخلق على حد تأكيد النقاد . كما ترجم عن جبران « النبي » و « يسوع بن الانسان » (وهذا الكتاب نفسه ترجمه الى الافرنسية في بيروت) وقد اسهم في الصحافة العربية ولا سيما «الاخبار» وفي الصحافة البرتغالية . وهو يعتبر ان ابراز المآثر العربية عامة في الحضارة واللبنانية خاصة افضل خدمة لقضايانا بالنسبة للعالم ولا سيما في وجه اسرائيل وخير سبيل لتعزيز تمسك المغتربين بالوطن الام .

اما المهاجرون الى البلاد النائية : غير العالم الجديد . فقد ظهر بينهم عدد من الصحفيين اسهموا في الجرائد والمجلات المحلية ولا سيما في اوستراليا وزيلندا الجديدة والهند . اما الادباء فقلة بينهم نذكر منهم في افريقيا الالمانية عزيز ضومط وفي افريقيا الغربية بعض شعراء داروا في فلك المدرسة المهجرية مثل خليل نخله وخليل فرحات وخليل فاخوري . وفي الصين الف المرسل نقولا بارودي (١٨٦٣–١٩٣٠) قاموساً صينياً لاتينياً وكتب دراسات فلسفية برسم الطلاب الصينيين . وفي الفيليبين ظهر نجيب صليبي وسعيد تقي الدين .

اما عزيز ضومط الذي عاش في افريقيا الالمانية ثم في برلين بعد الحرب الاولى : فقد انصرف الى المسرح فألف فيه بعض مسرحيات شعرية ونثرية في الالمانية نشرت في برلين وفيينا وقد استقى مواضيعها من التاريخ الشرقي : نذكر منها : « ابن سينا » : « واقعة الفيوم » ، « آخر الامويين » و« بلتزار » .

اما نجيب صليبي فقد اقترن اسمه بالادارة الاميركية في الفيليبين نظراً لابحاثه الاثرية وخدماته الطبية ولدرسه نفسية الشعوب في تلك الجزر . وقد كتب دراستين تاريخيتين عن « مورو » و « سولو » نشر الاولى في مانيلا سنة ١٩٠٥ وقال في مقدمتها : « تاريخ ميندناو قبل الاسلام حافل بالتقاليد والاساطير لكني شيئاً منها لم يسجل بعد » فقام هو بهذه المهمة استناداً الى الحفريات والآثار ودون معلوماته وانطباعاته باسلوب علمي لكنه ظلي .

اما سعيد تقي الدين (١٨٩٤–١٩٦٠) فهو وان يكن قد نشر كل مؤلفاته في لبنان : فانما تمحض بمعظمها في الفيليبين حيث قضى زهرة حياته . سافر اليها بعد تخرجه من الجامعة الاميركية ١٩٢٥ ثم عاد الى لبنان في اوائل سنة ١٩٤٧ ليسافر الى المكسيك سنة ١٩٥٨ ثم الى كولومبيا حيث مات في جزيرة سانت اندرز .

سعيد تقي الدين يكتب كما يتحدث . لا تعمل ولا حذلقة . الحوار

الرشيق الغني بسيد قصيده ومسرحيته ويطلع بسعادة البرية حيناً والاذاعة حيناً. وهو يشق الطفلة بعبرة على هوه عندما يعجز القاموس عن تلبية التعبير في احتدام الثورة او الانفعال.

بطل قصيده هو نفسه اولا ثم خوان له عايشهم عن قرب. هنا فلاح من بعقلين او وزيق من زحلة او بخ مجهول عصامي تحدى القدر او بائس تحالف عليه الدهر والبشر. انه يعرف كيف يصور الدقائق بحيث يوهم القارئ بالواقعية الحية.

أدبه ينبض بالأحاسيس الشريفة التي يعبر عنها باسلوب شفاف. كتب في السياسة والقصة والمسرحية والاجتماع ومن ابرز آثاره: «تولا نحامي». «نخب العدو». «حفنة ريح». «غابة الكافور». «رياح في شراعي»[1]. وهنا نموذج من ادبه:

«حين فتحت عيني وتحققت اني اصبحت من اهل هذه القارة علا صراخي فغمرته امواج من زغاريد النساء وحداء الرجال ابتهاجاً بقدومي. وسألت من هؤلاء الفرحون بلقاء من لا يعرفون فقيل انهم دروز. فاحببتهم لهم ازل. واني اعترف. وقد طيرت نفسي من اي تعصب حالفني فان ليس في الدنيا ما يهز من اعماق نفسي اوتارها مثل سماع قطعة القاف الدرزية الصلبة القاسية. وانا مدين العالم وقراءة وسأكرر تكبير اهميتها او تضؤل بنسبة قربها الى «بعقلين» او بعدها عنها.

... في الثلاثين عشت — ومت — ٢٢ سنة ونصف. وهناك استوردت كل ما تعرف من اصناف البضاعة. فتحت محطة بنزين. فتحت سينما. كنت دوارًا اي بائعاً متجولا. اجرت. طرت. سافرت على الخيل. ركبت على الجاموس. اغتنيت. افتقرت. لعبت بالبورصة. فتشت عن الذهب. سوكرت حياتي لانتحر. افلست ودفعت ديوني. جعت. اتخمت. حبتني اليابانيون ٥٣ يوماً خلال الحرب. واجهت الموت في اكثر الاحيان مختبئاً».

٥

ويستمر احتفاد واضعي الانجدية في اداء رسالة الحرف والانفتاح على الحضارات العالمية وانماء التفكير والجمال تحت كل سماء نشرًا لاشعاع بلد شاؤود كما شاءته الطبيعة محور لقاء القارات والاديان والثقافات وينطلقون منه، دون ان يفسدوه، كما تنطلق طيور السلام.

(١) لم نذكر الآ ـ ونعم تنسبه او كتبه او تنعه في ديار الاغتراب.